عراقيون
من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (3980) السنة الرابعة عشرة -
الخميس (27) تموز 2017
WWW. almadasupplements.com

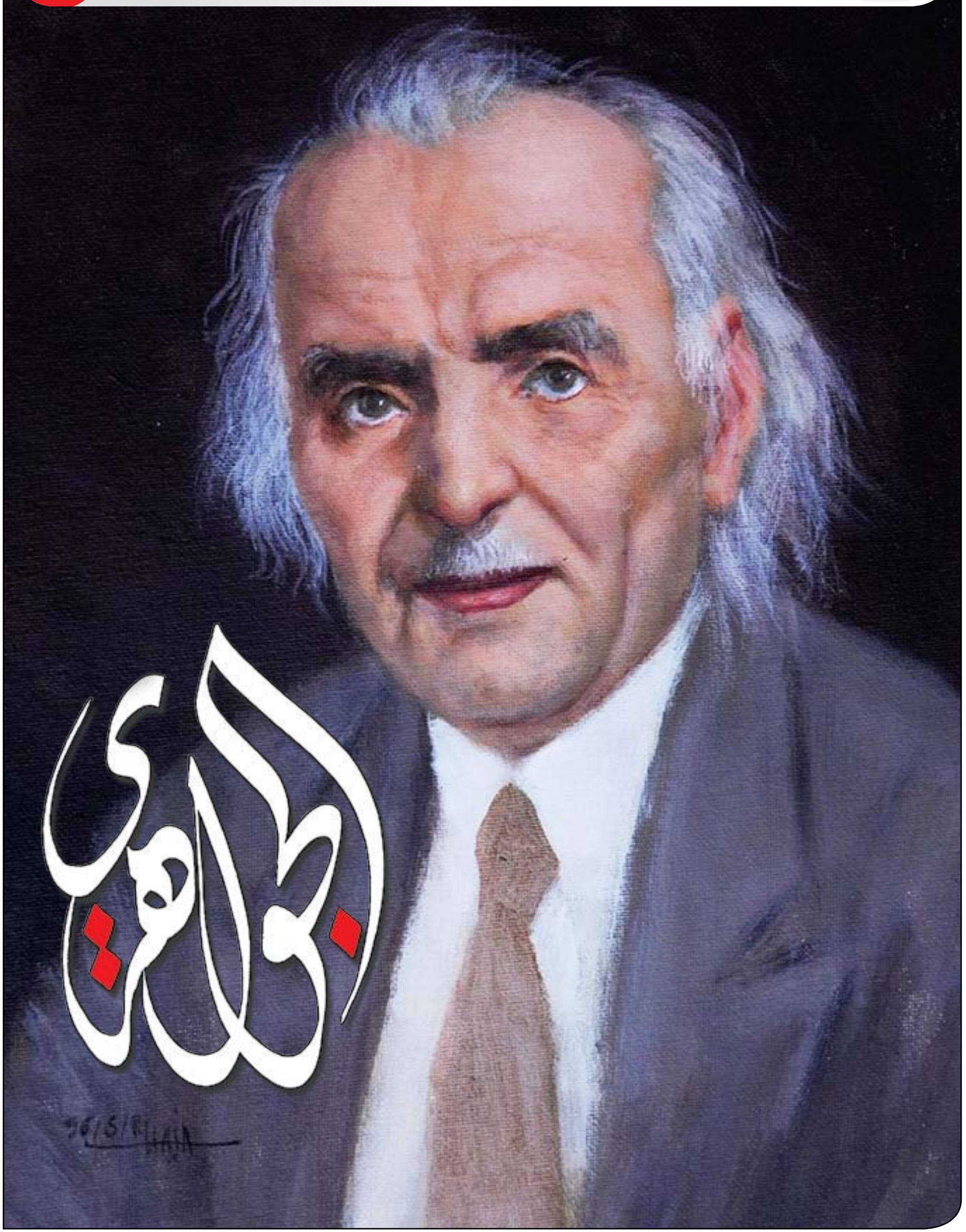

موقف مشهود للجواهري

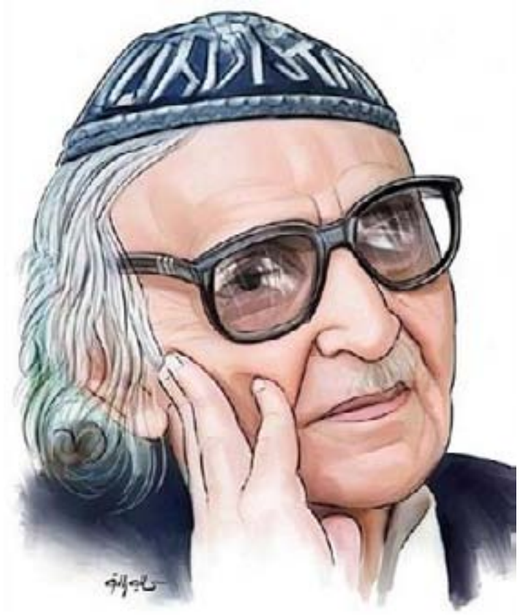

عدنان حسين

المرة الأولى التي التقيتُ فيها الجواهري وجهاً لوجه كانت في العام ١٩٧٥ اثناء الاحتفالية التي نظّمها في بغداد اتحاد كتاب آسيا وافريقيا لتسليمه جائزة اللوتس. كانٍ لقاءً سريعاً جداً.. كنتُ يومذاك أعمل محرراً في صحيفة "طريق الشعب»، وقد سعيتُ لاستنطاق الجواهري عن شعوره وهو يتسلّم الجائزة.. قال كلمة موجزة، فلم يكن في وسعه الاستفاضة.. كان محاطاً بالكثير من الأدباء العراقيين والاجانب وبالمعجبين به، فضلاً عن مسؤولين حكوميين.

قبل ذلك كنتُ ممن حفظ بعض أشعاره، لكن دراستي للصحافة في جامعة بغداد حتّمت عليّ البحث في المكتبة الوطنية ومكتبة المتحف عن الصحف التي أصدرها الجواهري، وبخاصة "الرأي العام».. وقد زادتني مقالاته المُجلجلة إعجاباً به وبلغته الفخمة وشجاعته السياسية، وجعلتُ منه أحد قدواتي، فرحتُ أحلم أن أكون صحفياً من طرازه.

في الثمانينيات جمعنا المنفى السوري.. كنتُ أزوره من آن الى آخر مع زميلات وزملاء من المثقفين الذي توطنوا العاصمة السورية، وكانت هناك زيارات عائلية أيضاً، فقد تصادف أن تكفّلت زوجتي، هيفاء جميل الدايني، مهمة تنضيد كتاب مذكراته.

لن أنسى أبداً موقفاً للجواهري في تلك الحقبة زاد من محبتي وتقديري له. في أواخر العام ١٩٩٠ أتصل بنا في دمشق الأمين العام لمؤسسة سلطان العويس الثقافية الاماراتية الاستاذ عبد الحميد أحمد والمدير التنفيذي لجائزة سلطان العويس الاستاذ عبدالإله عبد القادر (كاتب عراقي)، وكنّا نمثل رابطة المثقفين الديمقراطيين العراقيين، مبدين الرغبة بترشيح الجواهري لنيل جائزة جديدة تقرّر منحها للشخصيات الثقافية المرموقة ذات المنجز الثقافي المميز، اعتباراً من الدورة الثانية (١٩٩٠- ١٩٩١) التي ستعقد لاحقاً. اقترحنا أن تتولى الرابطة أمر ترشيح الجواهري للجائزة، وأخبرانا بأن من شروط منح الجائزة موافقة المرشح الخطّية على الترشيح.

ذهبنا إلى الجواهري في دارته بشارع الروضة في دمشق، زهير الجزائري وفاضل السلطاني وأنا وربما كان معنا أيضاً الزميل عصام الخفاجي، وأبلغناه بنيّتنا ترشيحه لجائزة العويس الجديدة.

بدا الجواهري مرتاحاً جداً وهو يلازم زاويته الدائمة في صالون الدار قرب طاولة صغيرة مكلّلة دائماً بقدح الفودكا، لكن عندما قدمّنا له استمارة الترشيح للتوقيع موافقاً، انتفض وقال بقدر من الغضب: أنا أوقع على ترشيحي!.. كيف؟.. لا أريد هذه الجائزة!

سعينا كلّ جهدنا لإقناعه بأن الترشيح من الرابطة التي اختارته عند تأسيسها رئيسا فخريا لها، وأن التوقيع هو إجراء شكلي مُتّبع في كل الجوائز الدولية المرموقة للتوثق من موافقة المرشح على قبول الجائزة. ظلّ مُعانداً، وتطلّب الأمر أن نستعين بابنته خيال وابنه كفاح اللذين كانا يشاركانه السكن في تلك الدارة، لاقناعه بالتوقيع الذي جاء أخيراً ولكن بعد اسابيع عدة.

كان الجواهري معتدّاً بنفسه وبمكانته الأدبية أيّما اعتداد... "يطلعله»، كما يقول السوريون.

الجواهريّ: صورة الشاعر التقليديّ رمزاً

شاكر لعيبي

الجواهري في الثقافة العراقية رمز شعريّ وسياسيّ، "أيقونة" ثقافية كما يُقال اليوم. لم يكن ممكناً، حتى العمر الذي بدأ جيلي يُكوّن فيه مواقف نقدية شخصية، وإلى يومنا هذا، زحزحة البعد الأيقونيّ للجواهريّ، أحبَّ المرءُ خيارِه العموديّ أم لم يُحبّ. في زمن متأخر قليلاً أمكن فيه الفصل نظرياً في الأقل بين البعدين (الشعريّ) و(السياسيّ) الذي تفضّل الثقافة العراقية الدمج بينهما، اعتُبرتْ مواقف الجواهريّ الوطنية المؤيدة لانتفاضات الشعب العراقيّ ووثباته أبان العهد الملكيّ، ودخول الشاعر المتكرر إلى السجن وثبات الجريدة التي كان يرأس تحريرها على مواقفها الوطنية وتعرّضها للمضايقات والإغلاق، جوهراً وأساساً لجماليات شعره. وأثناء الفترة التي انبثق فيها الشعر الحرّ وترسُّخه ومُضي الجواهري على خياره النهائيّ في كَتابة القصيدة العمودية، وقع غض الطرف وما زال عن مُفارَقة الرجل الحداثيّ في السياسة، والشاعر المُحافظ في الشعر، واعتُبرَ الجواهري، وفق تخَريجات النقد العراقيّ والعربيّ، من آخر بل آخر أعمدة الشعر الكلاسيكيّ العموديّ الكبار، رغم وجود أعمدة مماثلة ترفع هيكل البنية الشعرية التقليدية بالصلابة نفسها، في العراق وسوريا الحديثين. ولعلنا نتفق مع د. جلال الخيّاط في خلاصته: "إنّه شاعر عبّاسيّ أخطأه الزمن، ووجوده في القرن العشرين يمثّل ظاهرةً غريبة". ثمة شيء عصيّ على الوصف جعل الجواهريّ استثناءً وشذوذاً عن القاعدة، حتى بالنسبة لمثقف يزعم أن الدمج بين البعدين الموصوفين (الشعريّ) و(السياسيّ) غير كاف لتأسيس جماليات شعرية معاصرة رصًينة، ناهيك عن زعمه أن الشكل الشعريّ ليس أمراً محايداً قليل الشأن. كلّ سجال عن تقريب ومصالحة بين الطبيعة الجمالية والشكليةً التقليدية لشًعر الجواهري وشعر الحداثة، يندرج وفق تقديرنا في باب إيجاد المخارج لحبٍّ مُنفلت عن المنطق الأدبيّ للشخص، بل هو تقَعيدً لاستثنائه.

عندما أصدر الجواهريّ عام ١٩٧١ عمله "أيها الأرق»، لابدّ أن المثقف الافتراضيّ صاحب المتطلّبات الجمالية العالية والمزاعم النقدية، قد خَفّف قليلاً من غلواء مزاعمه. فالقصيدة ذات البحور الخفيفة والصور الأقرب لمخيلة مستحدثة من غالبية شعره، تُقَرِّبُ بضربةٍ واحدة، وربما فٍي مرة نادرة، الجواهري، شاعراً وموقفاً ورؤية، من (حداثة شعرية ما). عندما نقرأ:

أنا عندي من الأسى جبلُ
يتمشى معي وينتقلُ

فإننا أمام صورة لا نعثر على صورة حديثة، فوق واقعية، مثلها في شعره العموديّ إلا نادراً (جراح الضحايا فمُ). لماذا لم تُقنع منطلقاتُ الحداثة في الشعر شاعراً كالجَواهريّ، كما أقنعته في السياسة والاجتماع؟ هذا السؤال جدير بالطرح أمام جمهرة من طلاب الثانويات والجامعات العراقيين، ولعل إجاباتهم ستكون أقربٍ لروحٍ عصرهم، ولعلها ستحوز مكاناً كبيراً جوار إجابات أكاديميينا. هٍل المزاج الشعريّ العراقيّ العام أكثر ميلاً للصوت الموسيقي العالي والخطاب السياسويّ والتحريضيّ، هل ثمة انشقاق ثقافي جسيم في فهم معنى الشعر ووظائفه في الطبقات العميقة التي تشكل الثقافة العراقية، والعربية استطراداً.

لعلّ من المُفضّل اليوم رؤية الجواهريّ بعيداً عن المواقف الاجتماعية والبلاغات التقليدية والتحليل السوسيولوجيٍّ لحياته ونصه، والتمعّن فيما جعله رمزاً للشاعر طيلة أكثر من نصف قرن في الأدب العراقيّ.

بـين بيتنا وبيت الجواهري في النجف لا أكثر من مائـة خطوة في ذلك الزقاق الذي ينعطف في نهايته من محلة العمارة باتجاه محلة المشراق. في الطريق بين بيتنا الى بيت جدي في محلة المشراق أمر بالبيت القريب من الصحن. أقطع الزقاق الآن في خيالي وأنا ممسـك بالفانوس لأنير خطوات الوالد متسـمعاً خطواته بسخط الصبي الذي سرقت منـه طفولته وتحتم عليه أن يحضر مجالس الكبار قبل أن يعرف أزقة اللعـب. أمر كل يوم بنفـس الزقاق متتبعاً خطواته والدائـرة التي ينيرها الفانوس بـدون أن أرى الجواهري الـذي يتحدث عنه والدي لأنه ترك المدينة منذ سـنوات واسـتوطن بغداد تـاركاً خلفه صورة زنديـق خالف عادات المدينـة وأعرافها وراح يشرب الخمر هناك بين الغواني. والدي وجيله من العلمانيين كانوا يتداولون أشعاره كمثال لتمردهم.

زهـيـر الـجـزائـري

الجواهري: أنا بطبعي شخص متأزم دائم التوتر ولا أفهم كثيراً في السياسة

حـين كـبرت كان بلنـد الحيـدري وديوانـه (خفقة الطين) أقرب إليّ من الجواهري، كنت قد غـادرت العمود بـلا رجعة، ومـع مجايلي في المدينـةً كنّـا ننظـر للعمـود على انـه قيد حريـة القصيـدة لأكـثر من الـف وخمسمائة عـام. لذلك غادرناه دون عـودة. مع ذلك نعود الىالجواهـري لنتـداول قصائـده المتمردة، وهنا يتداخل الثوري والعدمي فينا.

عـام ١٩٧٠ وربمـا ١٩٦٩ رأيـت الجواهري لأول مـرة في قطارٍ ليلـي يتجه الى الجنوب. كان قـد عاد تواً مـن منفاه في براغ وهو على حذّر من البعث الـذي عاد للسلطة بقناع اكثر مقبولية. في القطار الذي يشق الليل باتجاه الجنوب كنّـا (رياض قاسم ورشـدي العامل وأنـا) في غرفـة واحـدة. الغرفـة المجاورة مغلقة على سر يعرفـه رشدي العامل ويحوم حوله بفضول:

–كفى!

قالهـا رشدي العامـل وهو منتشـ بالصحبة ونجـوم الليـل والخمـرة المبذولًـة في قطار يحمـل كل هـذا العـدد مـن الشعـراء. دفـع البـاب بيننا وبين الغرفة المجـاورة فانكشف الشاعـران، الجواهـري ومصطفـى جمـال الديـن. الجواهـري عـرف نفسـه بالزنديـق وكأسـ البرانـدي بجانبه ومصطفـى جمال الديـن علـى الكرسـي المقابل بقميصـ النوم ملتف على نفسه بحذر، فالخمرة المحرمة عليه على مبعدة ذراعين. هل أشتهٍي الخطيئة مرة ام اكتفـى بالتغزل بها شعـراً كما فعل الشاعر الحبوبـيً. ممازحـا قـرّب السيـد مصطفـى جمـال الديـن كأسه مـن أنف رشـدي العامل ليبرئ نفسه من معاقرة المنكر. معاقرة الخمر والتغزل بها كان موضوع الحديث والمتكلمان همـا الجواهري وجمال الديـن. هل يحق لمن جـرب الخمـرة وحـده أن يتغـزل بهـا؟ وهل التغـزل بهـا حرام مثـل شربها؟ وهـل جربها الحبوبي أم لا؟ رشدي ورياض ملحا النقاش بالهزل.. النقاشـ استمر حتى ساعة متأخرة مـن ليـل يشقـه القطـار. بـين فـترة وأخرى تلمـع أضوية ونيران بعيـدة وقرى تناشدنا التمهل، لكن القطار يصرخ ويمضي...

في الفجـر الباكـر، وبينما الكل نيـام، رأيت الجواهـري مثـل طفل، عالـق بالنافـذة يريد أن يرى الأهـوار حين تكتسب شكل الطبيعة لحظـة الخليقـة الأولى. أطـراف القصـب يكتسـي لونـاً بنفسجايـا، قبـل أن يطلع أول ضوء وكأن الإلـه السومري أنليل قال : ليكن بـين المـاء الأعلـى والمـاء الأسفل جلـد! يدير الجواهري رأسه يمينا ويسارا غير قادر على أن يقرر، من أيهما يغرف الجمال من الماضي، أم مـن القادم؟المشاهـد تمـر أمامـه والقطار يسـيرٍ والجواهـري متشبث بحافـة النافذة تاركاً للريح أن تطـير خصلات من شيباته. :

معقول! كل هذا الجمال وتبقون نائمين؟!

قبيـل الوصـول الى محطـة البصـرةٍ توقف القطار لسبب لا نعرفـه. توقف طويلاً ونحن ومعنـا مـن قيـادات البعـث عبـد اللـه سلوم السامرائي وصلاح عمر علي. توقفنا ساعات لسبـب مقلـق لا نعرفـه. زاد قلقنا حـين رأينا المسؤولـين قد جمعـوا حقائبهـم ونزلوا من القطـار مـع حماياتهـم قلقـين. بعـد نزولهم مباشـرة وصلنـا الخـبر : جماهـير البصرة زحفـت الى المحطـة واجتاحـت كل الحـواجز لتستقبـل الجواهـري. المسؤولون نزلوا من القطـار لأسبـاب أمنيـة ولكي لا تبـدو هزالة السياسـي أما عظمـة الشاعـر. القطار يلهث ويتقدم ببطء. حين أقتربنا من المحطةٍ ومعنا حشد مـن الأدباء العـرب سمعنـا دوياً، ومن النوافـذ ميزنا الهتـاف : –جواهري أهلا بيك إحنه أهل البصرة نحييك.

حـاول الجواهري لساعـة وأكـثر أن يخفف حماس الحشد وهـو يحييه من النافذة، لكن لم ينفـع الأمـر. تقـدم بقامتـه الطويلـة نحو البـاب، لكن الجمهور كان يلهـث، يدفعٍ حزام الشرطة بإصرار،و فجاة رأيناه محمولاً على الأكتاف والحشد يسير به :ألى أين؟.

أنـذاك عرفنـا لماذا تسلـل رجـال السلطة قبل وصول القطار. هربا من فضيحة.

الى جانبـي في النافذة صافينـاز كاظم وَعَبَد المعطي حجازي ومعهـم الدهشة، فقد تعودنا علـى احتفاء كهـذا بالقائد، أمـا أن يكون هذا الاحتفـال بشاعـر؟! زاد الجواهـري إيماننا بالشعر.

كيف تولد القصيدة؟

أريـد ان اعرف يا أبا فـرات ولديك الكثير من قصائـد الاستجابـة لموقـف سياسـي– كيـف يتطابق الموقف والقصيدة. أيبدأ الموقف أولاً أم يتكوّن خلال القصيدة؟

هنـاك أكثر من موقف واحـد. احياناً كما قلت لـك اتلقى اشارة ويحدث تهيـؤ وليس تنزّل. وأقول لكٍ، بينـي وبٍينك، اني لا اعتبر نفسي سياسـياً بالمعنـى المُتعـارف عليـه، ولا افهـم كثـيراً في السياسة. ما أعرفه هو التعامل مع النـاس، وفي هذا النطاق بالـذات، وبأمكانك ان تُدخـل مـا تشـاء مـن المفـردات تحت هذا الباب. بهـذه البساطة افهـم السياسة. وهذه البساطـة وهـذه الحـدود، مخلوقـة لي كمـا انا مخلـوق لها. يُضاف اليهـا حضور الرؤيا والصورة التي تكمن في صميم الاحداث وما يراه الناس. ولكن عندما يحدث وضع يتطلب موقفاً يبدأ في داخلي تهيؤ له، وللحدث الذي يرافقه والمطلوب ان يعبّر عنه. وبعبارة اصحٍ واصرح تهيؤ لانتهاز واستغلال الموقف. حقا اني اريـد في هـذه الحالـة ان اقـول للناس. ولكـن، واعتبر نفسي من صلـب الناس، قبل ذلـك اريـد ان يكـون الموقف جـزءاً منـي انا الجواهري، وافكر بان مـا اقوله يكون جزءاً مـن دمـي. وهنـا تسبقنـي الفكـرة الاوليـة، اي المنطلـق. فاذا انطلقت فتعـوذ بالله! تجر الفكـرة الفكـرة كمـا الوحـي. وقـد يستغرق البيـت الذي يسبق الموقـف مني نصف ساعة قبـل ان امسك القلـم، او قبل ان اقـول البيت الاول الذي هـو عندي عنـوان الفكرة. ولكن بقيـة القصيـدة ستستغـرق نصـف ساعة أو ساعة ونصف في اكثر تقدير.

سلام على حاقد ثائر
على لاحب من دم سائر

طبيعي يأتي بعدها:
سلام على مثقل بالحديد

اقولهـا وادري اننـي وٍضعـت الحديـد في يـدي على رغـم ان احداً غير قاسـم، لم يضع الحديد في يدي، لا ادري كيف، ولكني عرفت اني يجـب ان اقـول ذلـك، واقولهـا بقوة لان الناس تريد ذلك. وحتى لو لم يرد الناس ذلك فقد اردته انـا. واذا اراد النـاس فتلك حسنة اضافية. وهنا يأتي عنصر التحدي الذي قلت عنه. كانت الحرب كما قلت سجالا بين الموقف والموقف والطبقة ولم يكن النصر هدفي، ولم أبـال بالهزيمـة، اعتبرت هذه الحـرب قدري وعلـيّ ان اخوضهـا حتـى النهايـة. هنا لابد لي مـن الحديـث عـن قصيدتـي في مؤتمـر المحامين، فقد كنت عائداً من باريس ووصلت الى بغـداد في ((يـوم المشانـق)). وعلمـت بالخـبر الاليـم وانـا في طريقـي مـن المطار الى البيت. وكانـت الشوارع حزينة صامتة. حتـى النـاس في المقاهي صامتـون. وملأت المـرارة والغضب نفسـي فرأيـت ان صرخة لبغـداد لا بـد وان تنطلق في هـذه المناسبة، ومـن داخلي جـاءت الاشارة بأنـه يُراد مني شـيء لا يمكـن ان يكـون، لا في مفهومه ولا منطوقـه ولا زمانه. فالمشانق منصوبة، ومعٍ ذلـك شعرت بأنـه يُراد مني مـا لا يُراد اصلاً.

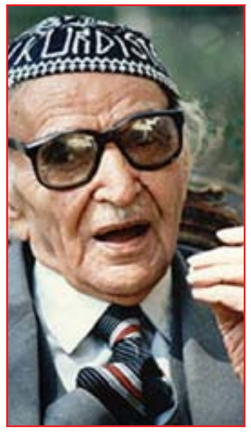

وقـدّرت ان عقوبة مـا افعله لن تقـل ابداً عن خمس سنـوات من السجن حسـب القوانين العرفيـة السائـدة ومـع ذلـك اعـددت نفسي للنزال فبـدأت ببيع المطبعـة بسعمئة دينار. وكان هـذا المبلـغ للبيـت واحتفظـت بستين دينـاراً وقلـت لاهلـي ان يحضـروا انفسهم للذهـاب الى النجـف. وفصلـت بدلـة جديدة لـ ((اكشخ))"أتباهى" استعـداداً للمناسبة، وعندما أكملت القصيدة قرأتها امام أم نجاح (زوجته) ووصلت ((حشدوا عليّ المغريات)) قالـت أم نجـاح ((عـوافي!)) وتعنـي عنـد النساء العربيات ((ليكن ما يكن!))...

في مثـل هـذه الحـالات تتوقـع القصيدة في داخلكٍ وكأنها مقروءة على حشد؟

تمامـاً.. (هوايـة)) فرق بـين ان اقـول ((انا حتفهـم الـج البيـوت عليهـم"، وأخذهـا الى الجريدة، حتـى ((لو تسـوي)) ضجة (ثاني يوم)) وبين ان اقف في المحفل واقولها وسط النـاس، واصابعي في عيون مـن اعنيهم من الحاكمين.

في كل هـذه الحـالات كنـت في حاجـة الى استفزاز خارجي لكتابة القصيدة.....

انـا بطبعي شخص متأزم دائم التوتر. ولهذا كنت مثـار تعب لعائلتي، دائمـا يقولون لي : ستقتـل نفسك بهذه العصبية الدائمة.. حركة الاصابع المتوترة اكمل تعبير على هذا التأزمٍ الدائـم. وقـد كنـت منـذ طفولتـي مــعروفاً بفـورة الـروح وكان اقـراني يناكدونني ((مهـدي عصبـي، يفـور فـورة ويستوي)) وحتـى الآن تلازمني هذه الفورة والاستواء ويصـادف ان يلتقي هذا التـأزم مع الاحداث التـي تـؤزم بـلادي. او ان ازمتـي الداخلية تغذي تـأزم الناس بالقصائـد. فكل من عاش هذه الفترة يعرف جيداً ما كان لهذه القصائد مـن زعزعة وإثـارة لجماهير كانت في حاجة الى مـن يزعزعها ويحركهـا وينفث عنها. فيٍ احيان اخرى استفز بحدث يمسّني شخصيا كمـا حدث مـرة حين ذهبـتٍ الى تشييع نيابة عـن البلاط وعـدت خاسراً متألمـاً من نفسي؛ لماذا ذهبت؟ وكان الألم يغذي داخلي قصيدة، والمفروض ان تنفجـر في صلب القصة التي حدثـت، كمـا هـو المألـوف : ((قالـت وقلـت خاطبتهـا جاوبتني)) ولكن ابدا لم يكن شيء من هـذا، ولا كلمة واحدة عـن الموضوع، بل ولا حرف فالابـداع كان اسمـى رغم الغضب العـارم. وبـدأت بانطلاقـة داخليـة وكأنني ساغادر دجلة. اتغزل به كأنما اودعه متألماً :

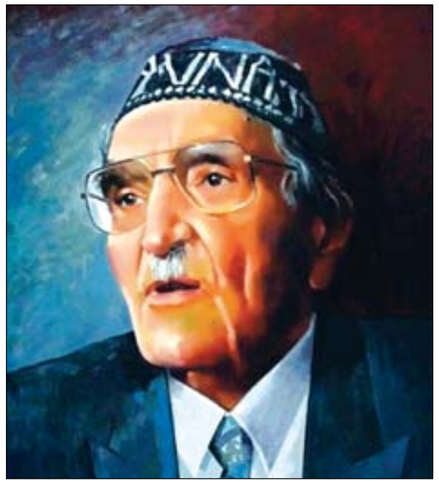

سـلام علـى هضبـات العـراق وشطيـه
والجرف والمنحنى

×مقطع من مقابلة طويلة مع الجواهري في دمشق

ماذا أعطينا الجواهري؟

فـاضـل الـسـلـطـانـي

حسنـا. قيل كل شـيء تقريبا عن الجواهري، الذي مـلأ الدنيا وشغل الناس، منـذ الأربعينيات في الأقـل. رددوا كثيرا، وهم على حـق، بأنه "شاعر العرب الأكبر" و"آخـر الكلاسيكيين»، و"ومتنبـي القـرن العشرين».. إلخ. لكن منذ رحيلـه عـام ١٩٩٧، لم نعـد نسمـع الكثـير. لم نقرأ كتابـا نقديا جـاداً واحدا عنـه، ونتمنى أن نكـون مخطئين، ولم تكتب سيرة عـن شخصيته الأكبر من الحيـاة، ولم تصدرٍ مختارات من شعره يمكن أن نقدمها لجيل أو جيلين ربما لم يقـرأوا له شيئاً، ولم يسمعوا سـوى باسمه، الذي كان البعثيون يخافون حتـى من ذكـره، وتبعهم في ذلك الجهلـة منذ ٢٠٠٣ لحـد الآن، الاميّون الذي رفضوا "أن تتحول" سلام على هضبات العراق" إلى نشيد وطني للعراق الذي غنـاه كمـا لم يفعل أحد قبله. ماذا أعطينا الجواهـري، الذي ولد قبل تأسيس الدولـة العراقية بسنين، ووسم أحدهما الآخر، والـذي منحها كل شيء حتى تستقيـم؟ لا شـيء. لقـد بخلت عليه لحـد الآن حتى باسم شـارع صغير. أمم كثيرة تتمنى لو أن الجواهري ينتمي إليها، لأنها سترتفع به، وتفاخر به بين الأمم، إلا نحن!

أذكـر الآن ذلـك العظيم "المجنون" عبد الكريم قاسم. ربمـا كنت في العاشرة. وكانـت المناسبـة، التـي نقلهـا التلفزيـون، احتفـالا بذكـرى رحيـل صديـق الجواهـري معروف الرصـافي، ١٩٥٩. ما إن ابتدأ الجواهـري البيت الأول من قصيدته:»

لغز الحياة وحيْرة الألبابِ   أن يستحيل الفكر محض تراب

حتـى نهضـ الزعيـم والجمهـوَر يستمعـون وقوفـاً لأبي فـرات حتـَى أنهى قصيدتـه. وربما هي المرة الأولى في التاريخ التي يستمع فيها الناس وقوفا، وفي مقدمتهـم حاكمهـم، إلى شاعر. يقـال كان ذلك اقتراح الرائـع الآخر علي جواد الطاهر. لكن هل يهم ذلك؟.

مـا تزال الرعشة ذاتها تنتابني كلما قـرأت هذا القصيدة بالرغم من مرور هذا الزمن الطويل، وكلما تذكرت ذلك المشهد المهيب.

قرأت مرة، ولا أعرف دقة ذلك، أن فهد قال: إعطوا الجواهري حركة جماهيرية يصبح منشدا لها. وهو كلام صحيح وغير صحيح في الوقت نفسه. صحيح، مـن ناحيـة الشـكل، الحاجـة لدافع، لقدح شـرارة الشعـر، كمـا أي دافع آخر كالحـب أو السعـادة أو الشقاء. وغير صحيـح، لأن الجواهري لم يستند إلى أي شيء خارج الشعر. لم يستند إلى الرصافي ليقول قصيدته الباقية، أو إلى أبـي العلاء ليطلق ذلك البيـت المدوي: "قف بالمعرة وامسـح خدها التربا..». كانوا حجة للشعر فقط.

انتهت الهبات الشعبية، وبقيـت القصيدة، وربما نسينا وثبة تشرين ١٩٥٢، ولكن ما تزال قصيدة "أخي جعفرا.. "ترن في آذاننا منذ أكثر من نصف قرن. وانتهى المنفى، الـذي كان الجواهري لسان ساكنيه حقباً طويلة جداً، وبقيت قصيدته "يا دجلة الخير.. "ساكنة فضاءاتنا.

كان أوكتافيـو بـاث يحلم أن تبقى منـه ست أو خمس قصائـد. ونعتقد أن ما يبقى من الجواهر ي سيكون أكثر بكثير.

عندما اصبح الجواهري موظفا في البلاط الملكي

دخل الجواهري النشاط السياسي في مرحلة مبكرة من حياته بحكم وجود نشاط سياسي واسع في مدينة النجف، ولاسيما عندما دخل البريطانيون المدينة عام ١٩١٧، وكان الجواهري أبن الخامسة عشرة من عمرهِ عندما قام بتوزيع المنشورات السرية المناوئة للاحتلال البريطاني للعراق، وكان لهذا العمل صداهُ آنذاك لما لهذه المدينة من أهمية دينية وسياسية() إذ كان يقوم بإلصاق المنشورات على أبواب الصحن العلوي وأزقة المدينة. انغمس الجواهري منذ نعومة أظفارهِ في النضال السياسي لما لهذا الأمر من خلفية إيّان مشاركة والدهِ في الجهاد، كما سبق ذكرهُ. فقد قام بخط الشعارات السياسية المناهضة للاحتلال والداعية الى الثورة والانتفاضة والتحرر.

وفي الذكرى الأولى لثورة العشرين عام ١٩٢١ ألقى الجواهري قصيدة مجّد فيها الثوار وأحط من شأن المحتلين وكان لها صدى واسع، ليستمر بعدها في مهاجمة الحكام المتسلطين والمرتبطين بعجلة المستعمر وذلك في قصائد لاحقة ومقالات شتى مما أثار حفيظة الكثير منهم وأثار غضبهم، وبقي الناس يتناقلونها من جيل لآخر.

عباس غلام نوري

ودشن تتويج الأمير فيصل الأول يوم الثالث والعشرين من آب عام ١٩٢١ ملكا على العراق في بداية العهد الملكي على العراق ذلك العهد الذي كانَ حافلاً بالأحداث لأنه عهد تأسيس الدولة العراقية الحديثة، ولأنه زامن سنوات الأنتداب البريطاني على العراق لذا كان العهد الجديد أحوج ما يكون الى الجهود من أهل العراق المخلصين الذين بأستطاعتهم أن يرفعوا من شأنه ويوجهوا البلاد نحو الاستقرار، ففي بداية عام ١٩٢٧ أصدر الأستاذ أنيس النصولي، وهو مدرس ثانوي سوري، كتاباً بأسم "الدولة الأموية في الشام" وقد أثار هذا الكتاب سخط الأوساط الشيعية في العراق وغضبها وأمتعاضها، ولاسيما الوسط النجفي لمركز النجف الديني للشيعة في العراق، وكذلك البلدان التي يقطنها أبناء المذهب الجعفري، اذ اتهم المؤلف بالإساءة الى سيرة سيدنا الحسين بن علي "عليه السلام" فكانت النتيجة أن فصلَ وزير المعارف عبد المهدي المنتفكي من عمله في مهنة التدريس في العراق.

استغل الجواهري هذه الفرصة أو المناسبة فكتب قصيدة سماها "تحية الوزير" أثنى فيها على خطوة الوزير عبد المهدي ودَم فيها النصولي ورفاقه السوريين، وكانَ الدافع لذلك هو اعتقاد الجواهري أن الكتاب أريدَ به أثارة الفتنة الطائفية لذا لم يقف الى جانب كثير من المثقفين الطلبة الذين خالفوا الوزير وخرجوا بمظاهرات ضد قرارهِ معارضين الوزير عملاً بحرية الفكر والنشر.

كان لهذه القصيدة أثر بالغ في تقريب الشاعر من الوزير عبدالمهدي من ناحية، والخلاف الذي نشب بين الجواهري المعلم ومدير المعارف ساطع الحصري من ناحية أخرى ذلك الرجل الذي عُرف بنزعته القومية واتجاهه العلماني. وفي ضوء تلك القصيدة استدعى الوزير الجواهريَ للعمل في المدارس الثانوية في بغداد، لكنه فوجيء بان عملهُ سيكون معلماً في إحدى المدارس الابتدائية في بغداد، وبهذا الصدد يقول الجواهري "قصدتُ الوزير عبد المهدي الذي استدعاني للعمل في المدارس الثانوية واذا بي أفاجأ بعملي في إحدى الابتدائيات، بعد خلاف مع مدير المعارف الحصري حول ضرورة حصول الجواهري على الجنسية العراقية بوصفها شرطا أساسياً للتعيين مما دفع بالشاعر الى أخذ الجنسية العراقية وتم لهُ التعيين.

زاول الجواهري عملهُ في الوسط التعليمي واذا به يفاجأ بأمر ساطع الحصري يفصله بسبب قصيدته القافية "بريد الغربة" التي نشرها في جريدة الفيحاء لصاحبها السيد عبد الرزاق الحسني اذ أثيرت عند نشرها ضجة كبيرة وأتُهم بدم العراق والولاء لإيران و"الشعوبية» وقد جاء بقرار فصله ما نصهُ "أرجو أن تبلغوا الجواهري بانتهاءَ خدماته بناءً على تظاهر عدم حيازته على الأوصاف المؤهلة للتدريس».

سارع الجواهري الى ابلاغ الوزير عبد المهدي بأمر فصله من الحصري والرجاء بإعادته الى الوظيفة، وجرت سلسلة من الكتب المتبادلة بين الوزير ومدير المعارف ليس حول قضية الجواهري فحسب بل توسعت دائرة الخلافات لتشمل الصلاحيات لكل من الوزير ومدير المعارف كلٌ من موقعه وغيرها من الأمور التي كانت مطروقة في وزارة المعارف آنذاك قبل قضية الجواهري تلك الإجراءات التي صارت حديث الناس والشارع العراقي وكتبتْ المقالات تلو المقالات في الصحف، وفيها من انتصر الى الوزير والجواهري في هذه المعركة وغيرهِ من انتصر الى مدير المعارف الحصري.

عد الحصري هذا الإجراء تحدياً لهُ فاعتكف ولازم منزله شهراً تقريباً حتى انتهت الأزمة التي كادت ان تصل الى ازمة وزارية بعد أن تدخل رئيس الوزراء السيد جعفر العسكري، وكذلك الملك فيصل الأول ، وإزاء تلك التقارير والمواقف المتباينة كتب الحصري الكتاب الآتي يعتذر فيه من الوزير فقد قال "معالي الوزير : بلغني أن معاليكم تألمتم من التقارير التي قدمتها حول مسألة الجواهري واعتبرتموها ماسة بكرامتكم ومقامكم الكريم، إنني أسفُ كل الأسف على حدوث هذا الظن، وأوكد لكم كل التأكيد أنني لم أقصد من تلك الكتابات غير إظهار قناعتي الصميمة في هذا الأمر وصيانة المعارف من أضرار التسامح في المسائل القومية، لذا أرجو منكم رجاءً خاصاً أن تعيدوا النظر في هذه القضية من اولها الى آخرها وتأمرون ما تروْنهُ لازماً للمصلحة العامة هذا ولمعاليكم الإحترام».

انتهى هذا الخلاف بالغاء الأمر الإداري بالفصل وإعادة الجواهري الى التعليم، وبعد أسبوعين تقريبا امر الوزير عبد المهدي بأقالة الجواهري حلا للأزمة المستعصية وبهذا يقول الجواهري "جاءني باقر الشبيبي من قبل الوزير عبد المهدي ليقول لي بالحرف الواحد، يا أخي قد انتصرت في المعركة وأخذت حصتك منها والان وقد وصلت الأمور الى حدودها (يقصد أعتكاف الحصري) ليس أمامنا غير حل وسط مشرف وهو ان تستقيل».

استقال الجواهري حلا للأزمة المستعصية في الثالث من مايس عام ١٩٢٧ لما لاقاهُ من مشاكل من جراء تعيينه في التعليم والأزمة التي نشبت بين الوزير ومدير المعارف، فكانت محطته القادمة في بلاط الملك فيصل الأول، فقد توسط السيد محمد الصدر() لدى الملك، اذ صحبهُ "الجواهري" الى البلاط ليعَرفهُ به وبعد اسبوع أو أكثر بقليل استدعى الملك الجواهري ليعينهُ موظفاً في دائرة التشريفات للبلاط الملكي وهكذا أنتهت فصول الازمة التي عكست صراعاً سياسياً بين الجواهري والحصري وهي ليست أزمة وظيفة كما يبدو، فالحصري يمثل تياراً قومياً متشدداً والجواهري يمتلك نزعة وطنية مشوبة بالتقدمية وهذا ماجعَل الخلاف حاداً ومزمناً بين كليهما.

فرح الجواهري فرحاً عظيماً بالوظيفة الجديدة بعد الذي جرى لهُ مع الحصري وحمله على الاستقالة من التعليم آخر الأمر، يقول الجواهري "ففي تلك الساعة أحسستُ أن الأرض تهتز تحتي فرحاً، لاحباً بمال أو جاه أو بمنصب بل شعوراً بالكرامة، ها هو الرجل الذي كانَ صاحب اليد الأولى في استرداد كرامتي التي أرادت الذئاب تجريحها».

مما لاشك فيه ان الجواهري في بداية عمله في البلاط الذي لم يألفهُ سابقاً ولم يخطر على باله، فضلاً عن قلة خبرته في العمل المنوط به وهو معاون مدير التشريفات والتقائه بأكبر نخبة سياسية مرت على العراق وهي الدولة الفتية، عُرف من قبل الملك بـ "شاعر البلاط" وأغدق عليه من النعم بقدر ما كانت تسمح به الأمور المالية للدولة الفتية في تلك المدة وأحاطه بالتكريم والتبجيل وقال لهُ أكثر من مرة وهو يحثه على ممارسة عمله بشكل جيد "ولدي محمد وظيفتك جسر تعبر عليه الى ما هو أحسن وأفضل.

ألتقى الجواهري في بلاط الملك بالسياسة ورجالها أول مرة وجهاً لوجه ورأى "الدجل والتزلف والنفاق من المرتادين للبلاط" ولكن هل يرضى طموح الشاعر بهذه الوظيفة مهما بلغ من مكانة لدى الملك، كان الجواهري في ذلك الوقت يطمح الى النيابة والوزارة، فهل يستطيع أن يواصل وظيفتهُ في التشريفات راضياً قانعاً، مع ان وظيفته في التشريفات تقيد لسانه في لهوهِ وجده على حد سواء فكيف التوفيق بين طموحه ووظيفته هذه.

وعلى صعيد آخر وخلال مدة دخوله البلاط الذي ظل فيه ثلاث سنوات تغيرت حياة الجواهري، وبدأ بالتغيير في ملبسه فخلع لباسه الديني وأرتدى الزي الإفرنجي "لباس الأفندي آنذاك" وتزوج من أبنة عمه جعفر الجواهري عام ١٩٢٨ كما سبق ذكره، ولم يذكر بأسمه الصريح عند نشر القصائد التي تخرج من محيط البلاط والحكومة وما يتصل بها انسجاماً مع طبيعة وظيفته، ولكن هذا لايمنع الجواهري عن الولوج في المعتركات الصعبة اذ توافرت لديه القناعات الكافية، فعند افتتاح اول مدرسة للبنات في النجف التي عارضها بعض علماء النجف بوصفها إنقلاباً اجتماعياً لهُ صدى اجتاح المدينة فقد كتب الجواهري قصيدته "الرجعيون" في إحدى الصحف اليومية صب فيه جام غضبه على المعارضين فتوالت البرقيات الى الملك فيصل من علماء الدين، فاستدعاهُ الملك في ضوء الرسائل والبرقيات التي جاءت الى الملك من شخصيات نجفية وعلماء الدين في شان هذه القصيدة والذي يبدو أنه كان مصراً على موقفه ومؤمناً بما ذهب اليه في قصيدته هذه.

وعندما ألفت الوزارة السعيدية الأولى في الثالث والعشرين من آذار سنة ١٩٣٠، وبعد يوم واحد من هذا التأليف أصدر نوري السعيد الإرادة الملكية من الملك بحل مجلس النواب لأنه "أي نوري السعيد" كان يخشى أن لايستطيع مواجهتهُ في موضوع المعاهدة الجديدة مع بريطانيا التي تقرَرَ المباشرة بالتفاوض لعقدها منذ الأيام الأخيرة لعهد الوزارة السعدونية الرابعة التي أنتهى وجودها بانتحار عبد المحسن السعدون.

بدأت الوزارة السعيدية الأولى تعد العدة لعقد المعاهدة الجديدة أستمراراً للمعاهدة السابقة مع بريطانيا، ويبدو أن نوري السعيد كان محبذاً لأصدار جريدة يتولى الجواهري رئاسة إدارتها وتحريرها بأسم "الفرات" لتقف الى جانب الوزارة وتدعم موقفها في عقد المعاهدة الجديدة (أي معاهدة ١٩٣٠ المعروفة)، ويروي الجواهري أنه التقى رئيس الوزراء السعيد في المنتدى الأدبي للسيد "محمود الدفتري" وشجعهُ السعيد على إصدار الجريدة وماهية الإجراءات التي ستتخذ لهذا الغرض وأنهُ": رأى الجواهري" قد اقتنع بذلك رغم تحذير ياسين الهاشمي المعارض للسعيد له من هذه الخطوة وتحذيره من خداع رئيس الوزراء له، واعتقد أن موافقة الجواهري جاءت لأسباب ذاتية وهي الشهرة والبروز في عالم الصحافة من جهة، وأن وجودهِ على رأس

جريدة تدعمها الوزارة سيحقق له مكاسب مادية من جهة ثانية.

أشار الجواهري في أكثر من مناسبة في المدة التي سبقت إصداره جريدة الفرات الى رئيس الوزراء بشأن المساعدة المالية ليتمكن من أصدار جريدته مما دفع رئيس الوزراء الى إتخاذ موقف يعدُ من المواقف الغريبة بعهده من رئيس سابق وهو أن نوري السعيد أصدر كتاباً الى المتصرفين في الألوية العراقية : بمساعدة جريدة الفرات، فانهالت عليه من الأشتراكات والتحويلات التي ازدادت على الحد المطلوب حتى بعد إغلاق الجريدة إذ بقي يعيش منها الجواهري مع أهل بيته. وفضلاً عن هذا الدعم المتواصل ابتداء بمنحه أمتيازاً بإصدار الجريدة، كانت هناك مبالغ قد تلقاها الجواهري من وزارة السعيد ويفيد هنا أحد المقربين للجواهري في السلك الصحفي أن الوزارة قد منحت الجواهري مبلغا قبل الإصدار يربو عن اربعمائة روبية وعدتها دفعة أولى.

تقدم الجواهري بطلب الى وزارة الداخلية لإصدار جريدة الفرات فلم تمانع الوزارة من إجابة هذا الطلب بيد أنها اشترطت عليه أن لايكون موظفاً وصاحب جريدة سياسية في آن واحد، فسارع الجواهري الى تقديم استقالتهُ من البلاط وكان آنذاك قد شغل منصب معاون لمدير التشريفات الملكية في البلاط الملكي كما سبق ذكرهُ، وعندما علم الملك بذلك أرسل عليه مشيراً إلى أنّ الصحافة ليست بعيدة عنه وأنه راغب بارساله في بعثة الى باريس للدراسة ناصحاً إياهُ بالتريث اذ دار حوار بينهُ وبين الملك فيصل الأول بقول الأخير مشيراً باللهجة العامية الدارجة الى نوري السعيد رئيس الوزراء الذي شجعهُ على الاستقالة، فكان جواب الجواهري بأنه يحب العمل الصحفي.

ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أن الجواهري منذ تشكيل نوري السعيد الوزارة كان تواقاً للتعاون معهُ اذ يجد فيه الشخص المناسب لتحقيق طموحات مادية وسياسية فكتب قصيدة في مدح رئيس الوزراء نوري السعيد بمناسبة تشكيله الوزارة، والقصيدة من أولها الى آخرها مدح لنوري السعيد وثناء على جهوده وشجاعته ونعي على معارضيه، ولم يشر الجواهري الى تلك القصيدة في دواوينه الكاملة التي أصدرتها وزارة الأعلام بناء على طلبه الشخصي التي تعَدّ واحدة من إحدى ثوراته وتقلباته غير المحسوبة في مدح رجالات الدولة، وكالعادة ومثلما كان قد مدح وزير المعارف في وقت من الأوقات وعين معلما، واليوم يطمح الى منصب سياسي مرموق في الوزارة الجديدة وهو طموح مشروع، في حين يورد آخر ثلاثة أبيات للموضوع نفسه داعياً نوري السعيد الى العمل في سبيل رقي الشعب.

دخل الجواهري ميدان الصحافة بوصفه صاحب امتياز حينَ أصدر جريدته اليومية السياسية "الفرات" بعد استقالته من البلاط بقليل فكانت أول جريدة يصدرها الشاعر وغدت النتائج مرضية بشأن الملك، الا أن الواقع أن الجريدة كانت مؤيدة للوزارة وسياستها، تتلقى منهُ الدعم المالي والتشجيع حتى عدّتها المعارضة جريدة الوزارة.

عن رسالة (محمد مهدي الجواهري ودوره السياسي)

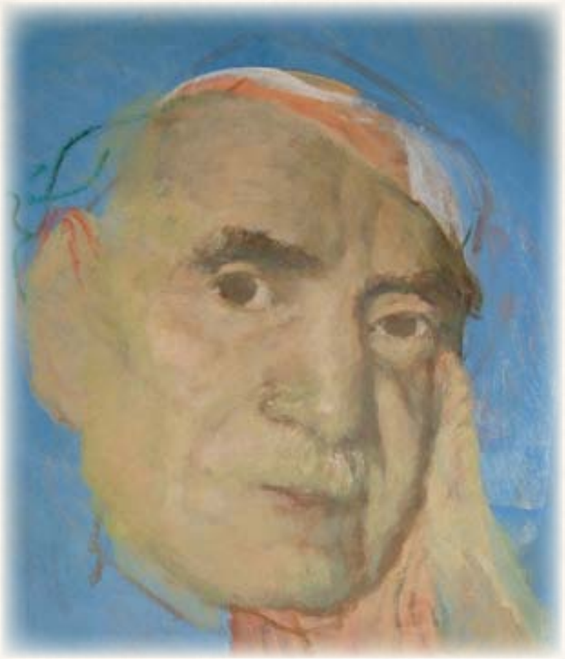

العدد (3980)
السنة الرابعة عشرة
الخميس (27) تموز
2017

الجواهري في ذكرى رحيله

فيصل لعيبي صاحي

لم يتفق معظم الشعراء العراقيون على شاعر كما إتفقوا على الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري ودوره المؤثر في الحياة الأدبية والسياسية في العراق والوطن العربي. كما ان عضويته في مجلس السلم العالمي وفي سكرتاريته يضيف بعداً آخر لهذا الدور، حيث تم تزكيته من قبل كل القوى الديمقراطية والتقدمية واليسارية في العراق لهذا الموقع.

عندما بدأ نجم "أبو فرات" يعلو كان طه حسين قد تنبه له وقبله أطلق عليه الرصافي لقب: "ربُ الشعر»، لكن الجواهري في بروزه هذا وجد امامه عقبات و قامات شعرية راسخة، اهمها أمير الشعراء أحمد شوقي و جماعة المهجر اللبنانيين والشاميين وفي العراق كان الزهاوي والرصافي، إضافة الى أن القصيدة العمودية، قد تعرضت لهزّات منذ عشرينيات القرن الماضي على يد العديد من الشعراء العرب الذين تأثروا في موجة الحداثة لحركة الشعر في الغرب الأوربي، والذي تمثلت في العديد من التجارب التي لاتتماشى مع إيقاع القصيدة العربية التقليدية، مثل تجربة رفائيل بطي في العراق وعلي محمود طه وجماعة الديوان وغيرهم في مصر، إضافة الى بروز قصيدة التفعيلة او ما يسمى بـ (الشعر الحر)، في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي وفي العراق بالتحديد على يد السياب ونازك الملائكة وبلند الحيدري و عبد الوهاب البياتي. لكن رغم كل هذا كان الجواهري يختلف عنهم في خاصية نادرة لم يكن يملكها معظم الذين يمكن ان يكونوا عقبة كأداء في طرق صعودة المدوي وتربعه على ريادة القصيدة العمودية على إمتداد أكثر من نصف القرن الماضي، ألا وهي قصيدته الموجهة الى الجماهير مباشرةً. فحتى شوقي لم يكن يملك حضورا كحضور الجواهري الطاغي امام الجمهور ولا كذلك طريقة إلقائه أوحركات جسدة التي تعطي للكلمات وقعاً عميقاً في نفوس سامعيه. لهذا كان الجواهري وبسبب تربيته الدينية والمنبرية بالذات، يمتلك موهبة الممثل والخطيب والمرشد معاً.

ومن ميزاته التي بزّ بها غيره أيضاً، مواكبته للأحداث التي مرّ بها العراق والعالم العربي وحتى احداث العالم، وهو هنا يقترب من شوقي في هذا المجال وقد يتساوان في شدة ملاحقتهم للأحداث عموماً. لكنه كان يضفي على قصيدته تلك المسحة التراجيدية والعاطفية، التي تهيج الجمور وتجعله يتعاطف مع القصيدة والشاعر معاً.

كان أبو تمام والمتنبي أهم الشعراء الذين تأثر بهم الجواهري، وهو بسبب من تناوله للأحداث السياسية والإجتماعية الهامة في عصره، قد ساهم في مد عمر القصيدة العمودية وأعطى لها موضوعاً مميزاً و نكهة مختلفة، فأكد على إمكانية عيشها حتى بعد ان تخلى عنها معظم الشعراء العرب المعاصرين.

والجواهري كشوقي يملك قاموس كلمات وصور ودلالات جعلته يحوز على إحترام حتى المعارضين لنهجه وطريقة كتابته للقصيدة. ولاحاجة لنا اليوم في إعطاء امثلة على شاعريته ومواضيعه المميزة ودرجة دقتها وحرارته العاطفية والفكرية وموقعها الإنساني الرفيع.

باسم عبد الحميد حمودي

ابو فرات في أتحاد الادباء

الكل يعرف ان الجواهري هو أول رئيس منتخب، وبالتزكية ل(أتحاد الادباء العراقيين) منذ عام ١٩٥٩، فأذن ماذا يعني أن يكون عنوان المقالةعن أبي فرات في الأتحاد؟

الذي لايعرفه كثيرون أن تأسيس هذا الاتحاد العتيد تم بعد عدة اجتماعات متفرقةلانصار الحزب الشيوعي العراقي واعضاء من الحزب الوطني الديمقراطي في مكاتب المرحومين ذو النون ايوب ومحمود العبطة وعلي جليل الوردي الشاعر وصاحب قصيدة(من أجل هذا ياعصام –انا نطالب بالسلام) الموجهة الى المرحوم عصام عبد علي والتيارات القومية.

اجتماعات اخرى حدثت في مقر جريدة الجمهورية (التي كان يشرف عليها عبد السلام محمد عارف رسميا ويديرها عمليا صحفيون من حزب البعث ،.للتداول في تأسيس أتحاد للأدباء العراقيين ومنهم علي الحلي وعبد الوهاب الغريري وعبد الله نيازي وسواهم.

كل هذه الاجتماعات لم تجد نفعا حتى تم عقد الاجتماع الكبير في مطلع عام ١٩٥٩ في دار الشاعر الجواهري وبدعوة منه في الاعظمية ،وكنت واحدا ممن حضروا هذا الاجتماع من الادباء الشباب ،وكنت أصاحب السادة:بدر شاكر السياب ونزار عباس وفؤاد قزانجي ورشدي العامل وماجد العامل وسلمان الجبوري ومحمود الريفي وغيرنا كثير،على اختلاف الاتجاهات السياسية.

كان في مقدمة الحاضرين (مع حفظ الالقاب):نازك الملائكة ومقبولة الحلي وعاتكة وهبي الخزرجي وصلاح خالص ومهدي المخزومي وعلي جواد الطاهر وفؤاد التكرلي وعدنان الراوي وعز الدين مصطفى رسول وانور المائي وعبد اللطيف أوغلو وسعدي يوسف وعشرات من الادباءو الباحثين.

كانت كلمة الجواهري الكبير لامة شاملة دعت الى وحدة الادباء العراقيين بمختلف تياراتهم الفكرية والسياسية لبناء أول منظمة لهم،وطرحت في الأجتماع عدة مقترحات انتهت بتأليف لجنة تحضيرية لوضع النظام الداخلي واخذ اجازة التأسيس...الخ

الزعيم عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء التقى الجواهري رئيس اللجنة التحضيرية ومنحه الاجازة والبناء الحالي للاتحاد ،اضافة ألى بناء آخر في الجهة المقابلة لبناء الاتحاد كمقر لنقابة الصحفيين العراقيين.

انتخب الجواهري رئيسا للاتحادونقيبا للصحفيين العراقيين معا ،ولكنه كان يفضل المكوث في الاتحاد وحتى ان معظم اجتماعات الهيئة الادارية لنقابة الصحفيين كان يعقدها في حدائق الاتحاد الفسيحة.

وكان سكرتير عام الاتحاد الاول الدكتور صلاح خالص اعقبه الدكتور علي جواد الطاهر مطلع عام ١٩٦٢،وكان الجواهري يدير الاتحاد بهيبته الكبيرة وبوجود رجال يعملون بهمة لخدمة المشروع الثقافي العراقي الجديد.

كانت امسيات الاتحاد الشهيرة كل اربعاء تدار اسبوعيا من قبل واحدمن ابرز الادباء وكان الشعر يلقى والمادة القصصية والنقدية،ويجري التعقيب الحر المباشر على ما يقدم ،وكان الطاهربوجه عام هو الفيصل أذا أحتدم نزاع الشبان من الأدباء.

كان حضور الجواهري الكبير شبه اليومي مفتاحا لنجاح الاتحاد في عمله حيث تأسست مطبعة الاتحاد بدعم من الدولة وبجهد الجواهري المباشر أيام حسن علاقته بالزعيم ،فلما ساءت نتيجة احتدام الاوضاع السياسية وأبتعادعبد الكريم قاسم عن البنية الشعبية ،قلت المنحة السنوية التي كانت تقدمها وزارة المالية للاتحاد.

كانت المطبعة الصغيرة التابعة للاتحاد تدار من قبل الشاعر الفريد سمعان وتطبع مجلة الاتحاد المركزية (الأديب العراقي) وسلسلة(أماسي الاتحاد)

وسلسلتي (مقالات مختارة)و(قصص مختارة) اضافة الى كتب الاعضاء حيث كانت الادارة تتقاضى من العضو نفقات كتابه وبالتقسيط..مساعدة وتعضيدا،ولم تكن وزارة (الارشاد) تطبع شيئا للادباء ولم تكن هناك وزارة للثقافة!

كان الجواهري الاداري ورئيس الاتحاد ونقيب الصحفيين وصاحب جريدة (الرأي العام) اليومية كتلة نشاط وحيوية ،اذ لم يكن الجواهري شاعر العرب الاكبر فقط ،بل كان الجوهرة اللامعة في اتحادنا العتيد.. حتى غادر العراق متوجسا عام ١٩٦٢ ،اذ رحل جسما لكن تأثيره ظل قائما حتى يومنا هذا.

ان حكاية رحلته وسواها من عذابات قد ترويها اقلام اخرى لكني اردت التأكيدعلى دور استاذنا الجواهري في تأسيس اتحاد الادباء وادارته المثلى ونجاحه في حشد الرجال المرموقين معه في ادارة هذا المرفق الثقافي الكبير.

اننا نستذكر اليوم رحيل الجواهري الكبير عنا منذ عقدين ،لكن مهدي الجواهري ما زال مقيما في الوجدان وفي حقل الابداع فلا قامة شعرية تعلو عليه لافي العراق فحسب بل في عموم العالم العربي ،اذهو متنبي العصروهو رب الشعر كما انشد له الرصافي يوما ،وهو ختام مسك القرن العشرين الذي عاشه كله إلا عامين.

العدد (3980)
السنة الرابعة عشرة
الخميس (27) تموز
2017

أولى معارك الجواهري مع الراديكالية الدينية وحلفائها

جواد غلوم

يُعرف عن الشاعر محمد مهدي الجواهري تصديه الدائم لكل المحاولات المعيقة لرقيٍّ مجتمعنا وإبقائه متخلفا تابعا ذليلاً سواء صدرت من الجهات الرجعية والسلفية او من خصومه غلاة الليبراليين المنزلقين نحو الهوى الغربي والمنسلخين كليا عن قيم وعادات مجتمعهم، فقد مال شاعرنا الى اليسار الذي طغى على الحياة وقتذاك بعد نجاح الثورة البلشفية في روسيا ووظف غالب شعره في تمجيد رموز الثورية اللابسة لبوس الماركسية وهو بعدُ شابا فتيا يعتمر العمامة مثلما كان كبار عائلته من مفكّري النجف يعتمرونها في رؤوسهم على عادة رجال الدين ذوي الاتجاه الاثني. ولاشأن للورع او التقوى بهذا اللباس بقدر ماكان اتباعا لما كان يلبسه الآباء والاجداد من عشيرهم وأهلهم.

وكم من معتمري العمائم – بضمنهم شاعرنا الجواهري -- من كان ندّا وخصما شرساً لأحابيل رجال الدين المرتزقة الذين اتخذوا من العقيدة مورد رزق وفير ومكسب جاه وحظوة على حساب السذج والفقراءً منْ مشاركي عقائدهم.

اذكر حادثة تعدّ اولى خصومات هذا الشاعر ضد غلاة المتدينين في مدينته وزمرة الرجعيين الذين لايريدون لبني جلدتهم ان يتسع افق عقولهم ليُبقوا أهليهم في سبات الجهل والظلامة ؛ فبعد تشكيل الحكومة العراقية برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب وتنصيب الملك فيصل الاول بن الحسين ملكا على العراق في ضوء معاهدة سايكس بيكو سنة /١٩٢١، وقتها قررت وزارة المعارف التي كان يستوزرها السيد عزت باشا الكركولي ان يقوم بافتتاح مدرسة ابتدائية للبنات في مدينته المحافظة النجف أسوة بالبنين الذين انضووا في المدارس الحديثة على قلّتها بعد ان شعروا ان لافائدة علمية ترجى من الانضمام الى الكتاتيب في الجوامع وتعليم مشايخ الدين التقليدي المقتصر على تلقين الايات القرانية والحديث الشريف وشيء ميسر من الفقه دون متابعة اخر الاساليب العلمية التي بدأت تترسخ منذ اول ظهور عصر النهضة.

هنا ثارت ثائرة رجال الدين التقليديين وأعلنوا بحدة معارضتهم لهذا المشروع التعليمي الحيوي باعتبار ان الفتاة مكانها البيت وتستطيع ان تأخذ نصيبها القليل من العلوم الدينية بحيث يكفيها ان تعلّم اولادها مبادئ الدين وأصوله واركان الاسلام حصرا فما حاجتها الى العلم والتزود به طالما هي قعيدة البيت بين اولادها وخادمة مطيعة لزوجها لتلبي حاجاته كراعية للرجل لتشبع نزواته ومعدته وتربّي أطفالها.

كان اول من تصدى لرجال الدين الممانعين لتشييد مدرسة للبنات في النجف هو شاعرنا الفتى محمد مهدي الجواهري وهو شاب مندفع متطلّع الى المدنية في ريعان العشرين من العمر مليئا بالنقمة على هؤلاء المتحجرين من معممي التخلف وذوي المنافع الخاصة والذين لايهمهم ان ترقى مجتمعاتهم الى مدارج التحضر وسعة الافق ؛ اذ نظم قصيدة عصماء ذكر فيها اهمية الاصلاح وارتقاء امم وشعوب اخرى بينما بلاده تتعثر وساسته من يضع العقبات امام مساره نحو النهوض والتطوّر والنماء.

ستبقى طويلا هذه الأزماتُ
اذا لم تقصرْ عمرَها الصدمات
اذا لم ينلْها مصلحون بواسلٌ
جريئُون فيما يَدّعون كُفاة
سيبقى طويلا يحمل الشعبُ مكرها
مساوئ من قد أبْقت الفترات
الم تر ان الشعب جلّ حقوقهِ
هي اليوم للأفراد ممتلكات
ومن عجبٍ ان الذين تكفّلوا
بإنقاذ أهلّيه همُ العثرات

يستمر الشاعر في إدانة رؤوس السلطة وبدلا من ان يكونوا هم الحل والخلاص تراهم مصدر البلايا وأصل المشاكل وهم من يخلقها عامدا لإبطاء النهوض وتعطيل العلم وبث الجهل واشاعة الفروق الطبقية بين الناس حتى يعرج على اصل المشكلة التي تتمثل في إشاعة الجهل وتعطيل عقول الشبيبة من الفتيان والفتيات اللائي يطلبن العلم ليتكفلن بناء البلاد على أسس صحيحة مع أقرانهن الفتيان المتعلمين.

غدا يُمنع الفتيانُ ان يتعلّموا
كما اليوم ظلما تُمنع الفتياتُ

هذه القصيدة قيلت في اوائل العقد الثاني من القرن العشرين يومها رفض رجال الدين وكثير من علية القوم الماشين في ركاب التخلف ممن يخافون على مصالحهم الفردية اذا نهض العلم وخفق بجناحيه واستقرّ في عقول الفتية والفتيات،حقا ان العلم كائن مخيف لمن بنى مجتمعه من ركام الجهل والتخلف واحكم سطوته على الناس بالقوة.

ياانديمي حتى الحروفُ تُخيفُ ------ في دساتيرَ شرّعتها السيوفُ (الجواهري أيضا في قصيدة أخرى)

فما الذي يعمله الجواهري سوى رمي العمامة جانبا ونزعِها من رأسه السليم في رؤاه وتفكيره وقذفها بعيدا في اقرب حاوية للنفايات طالما بقيت توصف بانها لباس الثعالب الماكرة التي لاتليق به وبعقله المنير ونفسه التي خلقت تواقة للصعود الى القمم والمدارج العليا مثلما انشد يوما ما وهو يهجر العمامة ويعتمر طاقية الرأس بدلا عنها والتي ظلّت ملازمة لعقله حتى وفاته :

لبستُ لباسَ الثعلبيين مكرها ---- وخالفتُ نفساً إنما خُلقتْ نسرا.

شاعرنا الجواهري استغل حادثة افتتاح مدرسة ابتدائية للبنات في النجف اوائل العشرينيات من القرن الماضي والتي لم يكتب لها النجاح بفعل القوى المعارضة للحداثة والتنوير المتمثلة في رجال الدين ولفيفهم من انصار العتيق من الفكر المعوج المائل للسلفية والماضي المدلهم وهم ثلّة من رؤساء العشائر والنفعيين من تسيّد الجهالة ومنغلقي الفكر والموتورين من اية نهضة قد تطيح بهم وبأحلامهم في ابقاء الشعب واهنا متخلفا كسيحا وقد استغل هذه الحادثة ليكشف عن فضائحهم ويعرّي نواياهم الشريرة كما نقرأ في الابيات التالية :

أقول لِقوم يحمدون أناتهم
وما حمَدتً في الواجبات أناةُ
أأسرع من هذي الخطى تدرك المنى
بطاءً لعمري تدرك الخطواتُ
وما أدّعي ان التهوّر صالحٌ
متى صلحت للناهض النَزوات
ولكن ارجّي ان تقوم جريئة
لصدّ أكفّ الهادمين بُناة
فان ينعَ أقوام عليّ مقالتي
وماهيَ الاّ لوعة وشكاة
فقد ايقنت نفسي وليس بضائري
بأنيَ في تلك العيون قذاة
وما النقد بالمرضى نفوسا ضعيفةً
تهدّ قواها هذه الحملاتُ
وهبني ما صلّتْ عليّ معاشرٌ
تباع وتشرى منهم الصلوات
فلو كنت ممن يطعمون بمالهِ
لعادت قداسا تلكمُ اللعنات

ثم يصب الشاعر جام غضبه على أوصياء الدين وأدعيائهِ الماكرين قائلا :

فما كان هذا الدين لولا ادعاؤهمْ
لتمتاز في أحكامه الطبقات
أتجبى ملايينٌ لفرد وحولهُ
ألوف عليهم خلّت الصدقات
وأعجب منها أنهم ينكرونها
عليهم وهم لو ينصفون جُباة
وفي تلك مبطانون صغرٌ نفوسهم
وفي هذه غرثى البطون أباة
ولو كان حكمٌ عادلٌ لتهدّمت
على أهلها هاتيكم الشرفات
على باب شيخ المسلمين تكدست
جياعٌ علتهمْ ذلّة وعراة
هم القوم أحياءٌ تقول كأنهم
على باب شيخ المسلمين موات
يلم فتات الخبز في الترب ضائعا
هناك وأحيانا تمصّ نواة
بيوت على أبوابها البؤس طافح
وداخلهنّ الأنس والشهوات
تحكّم باسم الدين كلّ مذمم
ومرتبكٌ حفّت به الشبهاتً
وما الدين الاّ آلة يشهرونها
الى غرض يقضونها وأداة
وخلفهم الأسباط تترى ومنهمو
لصوص ومنهم لاطةٌ وزناة
فهل قضت الاديان الاّ تذيعها
على الناس الاّ هذه النكرات
يدي بيد المستضعفين أريهمو
من الظلم ما تعيا به الكلمات
أريهم على قلب الفرات شواهقا
ثقالاً تشكّى وطأهنّ فرات
بنتهن أموال اليتامى وحولها
يكاد يَبين الدمع والحسرات

فما اشبه الليلة بالبارحة وما أقرب الامس باليوم فالصورة نفس الصورة والمشهد ذات المشهد

وكأنك ياعراق منذ تأسست كدولة ذات سيادة مفتعلة في اوائل العشرينات من القرن الماضي يتحكّم فيك اللص والابله والعقيم من الابداع والانجاز والضيّق الافق والاثني المبعثر العقل ومشعل الحرائق والكاره والحقير المقوت وكما ينعتهم الشاعر من ذوي البطنة الغارقين في الشراهة والنجسين من الزناة واللواطيين والنكرات وجباة المال من الفقراء والمعوزين دون وجه حقّ.

كنّا قبلا نجد المثقف العضوي والشاعر الرافض المكابر ونخبة الفكر في طليعة من يحتجّ ويعارض ويمتزج مع الشغيلة والمتظاهرين الناقمين من عمال وفلاحين وحرفيين أصابهم العوز والحيف وطلبة متنورين وشباب عاطل عن العمل والأمل ويكونون رأس حربة أمام الملأ العريض وقادة اوفياء للمسحوقين ولا يتركونهم حتى ينالوا مطاليبهم ؛ ليس في بلادنا وحدها انما كان هذا ديدن مثقفي العالم وشعرائهم ومناضليهم كما كان يفعل جان بول سارتر ورفيقته سيمون دو بوفوار والفيلسوف ميشيل فوكو وشخوص اليسار عامة ايام انتفاضة الطلبة اواخر ستينيات القرن الماضي وبداية السبعينيات في فرنسا وغالبية دول اوروبا حيث الاحتجاجات تتصدرها الانتلجنسيا المثقفة حتى في الولايات المتحدة الاميركية يقف المثقفون في الصدارة محتجين معارضين كما رأينا بيل كلنتون ورفيقته هيلاري وغيرهما وهم يرفعون الشعارات ضد حرب فيتنام والتدخلات الاميركية ضد الشعوب الفقيرة المقهورة، فهذه الامثلة التي أذكرها هي نزرٌ من كثر وغيض من فيض مثقفي العالم والتحامهًم مع شعوبهم المقهورة المطالبة بحقوقها.

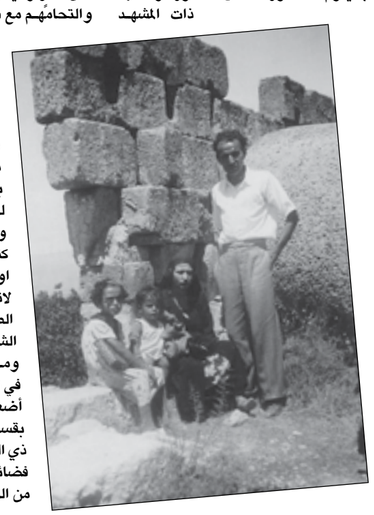

لكن هنا في بلادي فان اخفت الاصوات لصوت المثقف والشاعر والمفكر ومن السهل جدا شراؤه بالبخس من المال والدبق من مغريات العمل ليكون بوقا لحزب إثني وثرثارا لقناة تلفزيونية مشبوهة ولسانا ناطقا رسميا باسم كتل ومكونات عِرقية سقيمة او تيارات سياسَية نفعية لاتعرف سوى اثارة النعرات الطائفية والقومية ذات الطابع الشوفيني.

وما أرخصنا وما أبعد منانا في تحقيق مايريد شعبنا لو أضعنا يد الثوريّ الضاربة بقسوة ولسان المثقف الحقّ ذي الضمير الحيّ الذي يعرّي فضائح السلطة الغاشمة العارية من الشرف.

الذكرى العشرون لرحيل شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري

شاكر الأنباري

قبل عشرين عاما مات الشاعر، وكنت واحدا من المشاركين في توديعه إلى مثواه الأخير في مقبرة الغرباء الواقعة في مدار السيدة زينب، مع عدد كبير من الجالية العراقية المقيمة في دمشق، وكان يوما غريبا، مميزا، يحفر عميقا في الذاكرة، لم أر مثله في حياتي. لقد أبن الشاعر حشد هائل من السوريين والعراقيين والعرب، إذ جرى له تأبين رسمي وشعبي، وقطعت الشوارع التي يسير فيها الموكب، وكان الموكب مهولا، مثلما أستحضره اليوم، امتد من المستشفى وحتى تخوم السيدة زينب، وقد تكون المرة الأولى التي يؤبن فها شاعر عربي بهذه الصورة، وكأن المشيعين يودعون قرنا كاملا من الشعر، وقمة أخيرة في الشعر العمودي منذ المتنبي وحتى تلك اللحظات الحزينة المرتسمة في الوجوه.

ورغم أن الجواهري ينتسب إلى أرض الرافدين، مولدا ونشأة، إلا أنه، وفي ذلك اليوم، جسد المقولة الشائعة بصدق، وهي أنه شاعر العرب الأكبر، لا يخص العراقيين فقط، إذ تناقل معظم القنوات التلفزيونية العربية، ووسائل الإعلام المسموعة والمكتوبة، خبر وفاته، وكان الخبر في بعض تلك القنوات احتل الحيز الأول منها، وبهذا أكمل الجواهري أسطورته الحياتية والشعرية، هو الذي كاد يبلغ القرن من الحياة، وعاصر معارك العراق والدول العربية كلها، له ما له وعليه ما عليه، وسلّمه التاريخ إلى أيدي الدارسين والباحثين، المنقبين في تلافيف تلك الأسطورة الحية كعلاقته بالسلطات العراقية المتعاقبة، والمعارك التي خاضها الشعب ضد الاحتلال الانكليزي والحكومات التابعة له، وسنوات المنفى بعيدا عن دجلة والفرات.

الحقيقة التي رافقت مسيرة الشاعر هي أنه لم يبق أحد، سواء كان مثقفا أو فردا عاديا، إلا وتغنى بقصائده الشهيرة مثل أخي جعفر، و يا أم عوف، ودجلة الخير، وتنويمة الجياع، وغيرها الكثير من روائعه التي داعبت مشاعر العراقيين، خاصة في سنوات النضال، وسنوات المنفى، ومقارعة الطغاة. قرأ المهتمون لديه شاعرية لم يمتلكها أحدا من مجايليه، شعراء القصيدة العمودية، ووجد فيه النقاد تلك القدرة المتفردة في تطويع أحداث الواقع المعاصر داخل القصيدة الكلاسيكية، مما توجه محط إعجاب، لا شعراء العمود فقط، بل شعراء الموجة الجديدة المسماة بالشعر الحر أيضا، وهذا ما جعل الجميع يقرأ الجواهري ويترنم به، الجواهري المتجدد مع كل جيل يولد.

جسدت مواراة الجواهري في مقبرة الغرباء بدمشق فضيحة أخلاقية للنظام العراقي آنذاك، فأن يدفن شاعر بهذا الحجم بعيدا عن وطنه، حال عشرات المبدعين، كان وحده كافيا للتأشير على الخلل الفادح في الوضع السياسي لعراق تلك الحقبة المظلمة ودكتاتورها، وحزبها، وبيئتها الإعلامية والثقافية الدائرة في فلكه، وكأنه بذلك لخص مأساوية الثقافة المغتربة التي لم ترض العيش في ظل العسف، والاضطهاد، وتكميم الأفواه.

طوال حياته المديدة ظل الجواهري رمزا لعراق الرافدين، ذلك العراق المتعايش بمذاهبه وقومياته وأديانه، بعد أن تسامى، حياة وشعرا، على النعرات الظلامية والشوفينية، ولهذا السبب الجواهري، وغيره، تغنى بقصائده الجميع، عربا وأكرادا، مسلمين ومسيحيين، وحظي بتكريم واحترام حتى من اختلف معه فكرا وهوى ولسانا، وأصبح عن جدارة النهر الثالث في بلاد الرافدين.

العدد (3980)
السنة الرابعة عشرة
الخميس (27) تموز
2017

الجواهري.. ماذا تفعل الجبال في عصر كعصرنا؟

لـــؤي عـــبـــد الإلـــه

بعد سبعة أو ثمانية قرون، لو أراد ناقد أدبي، إعداد دراسة جديدة عن الشعر العربي الكلاسيكي، فإنه سيكتشف ظاهرة غريبة تتمثل بظهور شاعر في أوائل القرن العشرين، يمتلك نتاجه الشعري الضخم كل سمات ما أبدعه شعراء الطبقة الأولى في العصر العباسي، ولعله يتفوق على بعضهم. هذه الطبقة التي ظهر شعراؤها خلال عمر الدولة العباسية الذي امتد إلى خمسة قرون تقريبا، ما بين منتصفي القرنين الثامن والثالث عشر، وأغلبهم عاش في بغداد. من بين هؤلاء هناك المتنبي والبحتري وأبو تمام الذين اعتبرهم المعري أعظم شعراء ذلك العصر، وبين هؤلاء يقف شاعر القرن العشرين، محمد مهدي الجواهري، بصوره ومجازاته وقاموسه وبحوره وسلاسته أقرب للبحتري من غيره. ولعل الحيرة التي ستصيب ذلك الناقد القادم من المستقبل تكمن في الفجوة الزمنية التي تفصل بين شاعرنا وشعراء العصر العباسي: هناك سبعة قرون تفصل بين العهدين، وهناك عصور مظلمة سادت خلالها مع سقوط بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨، فما عاد هناك فلاسفة وأدباء وعلماء يجولون شوارع عاصمة الرشيد، وما عاد هناك سوق حافل للوراقين والمترجمين. ولم تعد بغداد باريس ذلك العصر بآدابها وفلسفتها ولم تعد لندنَ العصر الفيكتوري بعلومها الطبيعية وابتكاراتها.

مع ذلك، يظهر شاعرنا كاسرا قوانين المكان والزمان، بتلبسه عبقرية شاعرين من ذلك العصر الذهبي البعيد: المتنبي بحكمِه والبحتري بصوره وجزالته وانسيابيته.

أتوقف عند هذين البيتين من قصيدة يخاطب الجواهري فيها، ابن الكوفة، شاغل نحويي ولغويي عصره، المتنبي. يقول الجواهري مخاطباً ابن بلده:

فيا "ابن الرافدين" ونِعمَ فخرٌ بأن فتى بني الدنيا فتانا

حبتك النفس أعظم ما تحلت به نفس مع المحَن امتحانا

وكَأن شاعرينا اشتركا بقَدَر واحد رغم فاصلة الزمن الكبيرة: كلاهما عاشا الجزء الأكبر من حياتهما بعيدا عن وطنهما العراق، وكلاهما ماتا في أرض غريبة.

في قصيدة عنوانها "ساعة مع البحتري في سامراء»، يقارع الجواهري فيها أستاذه ونده في الوصف والجزالة والجريان الطلق:

ووقفتُ حيث البحتري ترقرقت أنفاسه فشفعتُهُنَّ دموعا

ولئن تشابهت المَناسبُ، أو حكى مطبوع شعري شعره المطبوعا

فكم تخالَف في المسير جداولٌ فاضت معاً وتفجرت ينبوعا

لعلي أتساءل هنا: هل جاء شاعرنا الجواهري في القرن الخطأ، في قرن يشبه ذلك الذي عاشه الناس فيه قبل سقوط بغداد بيد المغول حيث الانقلابات والمؤامرات والفظائع تشبه ما جرى ويجري اليوم في العراق، فانشغلنا عنه بالسياسة والتحزبات؟

أم إنه بيتهوفن آخر ولد في عصر خطأ حيث الموسيقى السائدة هي البوب والروك والراب، وحيث لا مكان فيه للموسيقيين العباقرة.

في زمن سيادة ما هو عادي ومتوسط واستهلاكي ماذا تفعل الجبال قبل أن تعيدها البحار إلى أعماقها؟

العدد (3980)
السنة الرابعة عشرة
الخميس (27) تموز
2017

صفحات مطوية من ذكريات الجواهري

فوجئت في أحد الأيام بالشاعر الكبير محمد الهاشمي يرد علي قائلا: «إلى نابغة النجف» وذلك بقصيدة مطلعها: «أيها البلبل غرد – وانظم الآلام شعرا» (...). قرأت قصيدة الهاشمي مرات ومرات وذهلت، أصحيح أنني الإنسان الذي استطاع أن يهز هذا الشاعر الكبير، فيرد علي شعرا على القافية نفسها؟ إذن، أنا إنسان مهم. الأرض لم تعد تحملني.. وبدأت الأحقاد تنمو في مجتمع النجف، ضد إنسان صاعد في بلد التناقضات، النجف، بلد الفقر المدقع والغنى الفاحش، جنبا إلى جنب. باختصار، بدأت أعي لعبة الحياة، بدأت أحس أن بلدي مع أدب ومجمع دين ومجمع فقر. وخلاصة الموضوع كانت أن سيئاتها أكثر من حسناتها.

أول الدرب

لنعد إلى بداياتي الشعرية. لنعد إلى الوراء. على ما قبل ستين عاما أو أكثر فبعدما نشرت لي القصائد تحت توقيع «نابغة النجف» تشجعت كثيرا، وقد أعطتني تلك القصائد زخما وانطلاقا في بحور النظم. لذلك، أنا من أنصار تشجيع المبتدئين في عالم الشعر.

كما أن طموحي تعدى حدود العراق فصرت أرسل قصائدي إلى مجلة «العرفان" في صيدا (لبنان) وكان صاحبها أحمد عارف الزين. فصارت قصائدي تنشر، واحدة في بغداد وأخرى في لبنان.

وبدأت أشعاري تبدو وكأن ناظمها أكبر مني سنا. وبمعنى الكلمة أنها كانت تبدو لإنسان ناضج. ومثال على ذلك؛ ففي أول زيارة قمت بها لبغداد. كان من الطبيعي أن أزور الصحف التي تنشر قصائدي. وفوجئ أصحابها بصغر سني، خصوصا أنني في ذلك العهد، كان شكلي مضحكًا. إذ كان وزني لا يتعدى خمسة وثلاثين كليوغراما. وكنت يومها ارتدي الجلباب والعباءة العربية (الزي النجفي) وعمامة صغيرة. كنت مثل شبح. أنا نفسي لم أكن أعرف شكلي. إذ لم يخطر على بالي مطلقا أن أنظر إلى وجهي أو قامتي في المرآة.

وأستطيع القول إنني بلغت العشرين دون أن أرى وجهي في المرآة. وأول مرة شاهدت وجهي فيها كانت عندما تصورت في بغداد وفوجئت بصورتي.

ربما تسألينني متى صرت «أباوع» (انظر) المرآة؟ صارت نظراتي تلتقي المرآة يوم عرفت أن هناك شيئا اسمه الأناقة في حياة الإنسان أي بعد بلوغي عامي العشرين بفترة طويلة. وسبب ذلك أن بيوتات النجف لم تكن تضم بين أثاثها المرايا الكبيرة الموجودة حاليا في كل منزل بل كانت المرآة الصغيرة هي المنتشرة في العشرينيات. لذلك عندما رأيت صورتي فوجئت وكأنها لا تخصني، أو بالأحرى كأنها ليست وجه مهدي الجواهري. عندها تذكرت أن هناك مرآة ويجب أن أعتني بشكلي، ولو قليلا. كنت أبدو وكأنني شبح يدب على الأرض.وكنت في السابق أتعجب من بعض الأشخاص الذين يخرجون من منازلهم وكأنهم نساء متبرجات، أو كأنهم يستعدون للذهاب إلى المراقص.

اكتشفت بغداد

بغداد كانت بالنسبة إلي عالمًا مجهولا. ذهبت إليها لاكتشاف هذا العالم الجديد. زيارتي إليها كانت أشبه بعربي ملهوف يزور باريس لأول مرة. ورغم بقائي يومين لا غير في بغداد بقيت أشهرا أتحدث إلى محيطي عن اكتشافاتي فيها.وبلا مبالغة، كنت أروي القصص كما كان يروي كولومبس اكتشافه لأميركا.

أنا «كولومبس النجفي" يروي مغامراته في بغداد. رسمت لهم صورة عن الأسواق الكبيرة، وما تحويه المحلات، وكيف أن البنات يمشين سافرات في الشوارع وكأنهن حوريات. يا سبحان الله! أكثر من ٦٠ سنة مرت على هذه الأحداث لكن بعضها ما زال عالقا في ذهني.ما زلت أذكر أول مرة نزلت فيها إلى السوق، وكيف بهرتني الأشياء المعروضة في الواجهات. بعضها لم أكن أعرف ما هو.

وقفت أمام محل يعرض الحلوى وأشياء أخرى. أقسم بالله، أن الذي استوقفني لم يكن البضائع المعروضة، وإنما كان وجها جميلا لفتاة في عمر الورود، تتحدث مع صاحب الحانوت، ربما كان يغازلها، لا أدري!.

كل ما أعرفه أنني وقفت في مكاني مبهورا بجمالها رغم العباءة التي كنت أرتديها والعمامة التي كنت أعتمرها. هذا «الشبح النجفي" لم يستطع مغادرة المكان. يا سبحان الخالق. إلى الآن صورتها ما زالت مطبوعة في ذاكرتي. وكذلك نظرة صاحب الحانوت الذي بدا وكأنه يقول لي: «ماذا تريد أيها المتطفل؟ اذهب بعيدا ودعنا وشأننا». ومع ذلك بقيت مكاني.

أنا المتطفل المعدم، تسمرت قدماي داخل الحانوت. حاولت شراء أي شيء مقابل بقائي، فما استطعت أن أدفع أكثر من ثمن صورتين صغيرتين لبعض الممثلات اللواتي كانت صورهن معروضة.

مفارقة طريفة

شيخ ذو لحية وعباءة وعمامة يشتري صورا لممثلات كن مشهورات في ذلك الزمن! والأكثر من ذلك، أنني حملت هذه الصور إلى النجف وكأنني اشتريت هدية كبيرة. كما أنني لم أنس أن أحدث أهل عشيرتي عن العربات التي تسير في شوارع بغداد، وكيف أنني دخلت دور الصحف واستقبلت استقبالا كبيرا. وكانت ليالي طويلة قضيتها وأنا لا أملّ الحديث عن بغداد. كما أعطتني تلك الرحلة شحنة من الاندفاع، وكبر غروري بنفسي.

أول سيارة

وعلى سيرة السيارات، لا أنسى أول سيارة رأيتها في النجف. كان ذلك أثناء دراستي في «المدرسة العثمانية" ربما كنت في العاشرة من عمري آنذاك، فقد خرجنا من الصفوف لاستقبال جاويد باشا وزير المالية في الدولة العثمانية. وطبعا لا يمكن أن تزور العراق أي شخصية مهمة ما لم تحضر إلى النجف، وتقوم بزيارة مرقد الإمام علي – رضي الله عنه – يومها حضر جاويد باشا في سيارة ضخمة ظلت حديث الناس لفترة طويلة.

◄

سيارة تمشي وحدها؟ كانت تعتبر ظاهرة فلكية لا تصدق. وكأنها المركبة الفضائية الأولى.

كيف كنت أنظم قصائدي؟ في أول عهدي كنت أنظم، أحيانا، في المقهى الأرستقراطي الهادئ. يومئذ، كان باستطاعتي أن أدون بعض الأبيات كي لا تهرب مني القصيدة.

ذلك المقهى كان صاحبه ذا مزاج خاص، إذ كان يحب الشعر والأدب. ولم يكن المقهى باب رزقه بل إقامة من أجل مزاجه. وقد زينه بأحلى وأفخر أنواع السجاد العجمي. إذ كان صاحب المقهى تاجر سجاد ميسور الحال.

وكيف كنت أنظم خارج المنزل؟ فقد كنت أكتب أول كلمة في كل بيت وقافيته. حتى عندما ألقي قصائدي في الأماكن العامة لا أستعين بها مكتوبة بل أدون بعض كلماتها على ورقة صغيرة أو علبة السجائر أو أي شيء آخر.

المهم، أنني منذ أكثر من أربعين عاما لم أعد أستطيع النظم سوى في المنزل.. ووحدي.

فأنا أقفل الباب على نفسي وأبدأ بالنظم بصوت عال، فأثبت البيت الأول على الورق، وبعدها يصبح ذهني كالمسجل: ما إن أبدأ بالكتابة حتى تكر الكلمات وكأنها مسجلة في ذاكرتي. ونظمي القصائد تجربة تتم بالصدى والصوت والنغم.

وعندما كان أطفالي صغارا، ويأتي هيجان الشعر في داخلي، كانت زوجتي تعرف أنني تبدلت، وأصبحت إنسانا آخر. لذا تمنع الأولاد من الدخول إلى الغرفة التي أنا فيها. وساعة جنوني الشعري لا أعي شيئا مما يدور حولي.

ومنذ فترة زارتني شقيقتي في براغ، مذكرة إياي بحادثة مر عليها أكثر من خمسين سنة. يومها جاءت تزورنا بعد غيبة طويلة. وطبعا سألت عني زوجتي، فقالت لها الأخيرة إنني في الغرفة المجاورة.

واتجهت شقيقتي نحو باب غرفتي وفتحته لتحيتي وإلقاء السلام علي، وإذا بي أدفعها إلى خارج الغرفة وأقفل دونها الباب. ووقفت المسكينة في الخارج مذهولة لفترة.

أما سبب دفعي لها فلكونها قطعت علي حبل أفكاري، وأنا أنغم إحدى قصائدي التي بدأت تولد في تلك اللحظات.

جرس الإنذار

ولحظة النظم يدق جرس الإنذار في المنزل. فكل من في البيت حذر، يتكلم بهدوء ويتصرف بروية كيلا يعكر عليّ صفو تسلسل أفكاري والسجائر أدخنها بلا حساب. تصبح الغرفة وكأنها مدخنة. والشعر بالنسبة إلي هو نوع من الجنون.

تتساءلين عن أولادي، وهل هناك بينهم من ينظم الشعر؟

حتى لو كان أحدهم ينظم شعرا فإنه لا يجرؤ على عرضه، إذ يخاف أن يشتم أو يقال عنه «أين شعره من شعر والده؟».

وأحد أولادي (نجاح) يقول لي: «نكبتنا أننا أبناء الجواهري. فمهما فعلنا لا يمكن أن نكون بمستوى الوالد. اسمك يطغى على كل شيء. حتى في الجلسات الخاصة لا نستطيع الكلام في حضورك». ونجاح يردد دائما على مسمعي قوله: إنه «معجب بي كجواهري، أي كصديق أكثر مني كوالد» ويعتبر «الشعر الكلاسيكي من الصعب فهمه» وهو متأثر بآرائي في الحياة. إذ يعتبرني أصور التناقضات لا بل أجمع بينها.

أحيانا أتجاذب أطراف الحديث مع ابني نجاح لكونه قريبا مني ومقيما في براغ. فيقول: «أنت تحيرني، فمن جهة نجدك لطيفا رقيقا معنا، ومن جهة أخرى نراك متحررا من كل قيد ومن كل تقاليد المجتمع. لم نفهم معنى الجواهري إلا بعد ما تزوجنا فصرنا نحس بك أنك إنسان كبير ومختلف عن الآخرين رغم أنني – نجاح – لا أفهم معنى أشعار والدي حين أقرأها».

××××××××

أنا محمد مهدي الجواهري، الجالس أمامك، ماذا فعلت بنفسي؟ كان يتملكني هوس صحافي الظاهر أن مرده كان إلى الشعر والأدب وكتابة الكلمة. والصحافة أعتبرها من الأغلاط الكبيرة التي بدلت مجرى حياتي. إذ كان لاسم الصحيفة رنة تختلف عن كل شيء.

ماذا أريد؟ الصحافة. وتناسيت أنني عند الملك فيصل الأول، وأنه لا يمكن الخروج من باب التشريفات إلا إلى مرتبة نائب أو وزير أو وكيل وزارة.

وكلمة الملك فيصل الأول ما زالت ترن في أذني حتى الآن. فيوم تم تعييني (١٩٢٧) قال لي: «ابني محمد، هذه الوظيفة هي جسر تعبر عليه إلى أعلى المراكز». حتى (الحمار) يفهم معنى ذلك.

قرأت منذ أيام، في إحدى مفكراتي القديمة، هذه العبارات التي خاطبني بها الملك فيصل الأول: «أنت، غدا، ستكون شاعر العراق». وللحقيقة والتاريخ لقد تحمل مني الملك فيصل ما لم يتحمله أحد غيره.

مشكلات مع الشعر

مشاكل كثيرة عانى منها الملك بسبب أشعاري. ومع ذلك كان يتحملني. فهناك قصائد لي أقامت الدنيا ولم تقعدها، أولاها كانت يوم نظمي قصيدة أنتقد فيها العلماء، علما بأن عائلتي تنتمي إلى هذه الفئة. فقد انتقدت فيهم الأنانية والبورجوازية التي تتحكم بهم وبالحاشية السيئة التي تحيطهم، متناسين الفقراء المساكين الذين يقضون جوعًا.

ورغم أنني كنت في مركز حساس ويجب أن أفكر في كل ما أكتبه لئلا أتخطى حدودي، فقد ضربت بكل هذه المقاييس عرض الحائط، ونظمت ما نظمت. وبدأت الاحتجاجات تصل إلى الملك فيصل الأول: «هذا الذي ينتقد العلماء، يعمل في حمام».

وللحقيقة والتاريخ. كنت متوقعا ذلك. وفي اليوم الثاني ناداني الملك قائلا: «ما هذه القصيدة التي نشرتها قبل أيام؟ هل فكرت بإحراجي قبل نشرها؟». فأجبته: العفو سيدي.. لا بد أنني أحرجتك. قال: «أتعلم أن ماذا فعل (ابنك محمد اليوم؟) فكل ما أطلبه منك الآن، هو الذهاب إليه والاعتذار منه».

وفي المساء اتجهت نحو قصر الملك علي، فاستقبلني هو مع مفتي بغداد يوسف العبد. تصوري موقفي وقصيدة «جربيني" بين الملك علي المتدين ورجل الدين مفتي بغداد.

التفت إلي الملك علي وقال: «الحمد لله أننا رأيناك». وكان ردي أنني أقدر ظروفه لذا لا أحب إزعاجه. قال: «وما الذي أتى بك الآن؟».

قلت: جئت طالبًا الاعتذار منك رغم أنني بريء يا سيدي.. وكل ما كتبته لا يتعدى الكلام.. كلام شعراء، لا أكثر ولا أقل. وأنا ينطبق علي المثل الشائع: «عفة النفس وفسق الألسن». عندها قال لي: «الحقيقة أنني لست راضيا عنك. أنسيت أنك ابن الشيخ صاحب الجواهر؟ ابن المرجع الأعلى في الدين ينظم أمثال هذه القصائد؟». ودار حوار بيني وبينه قال في نهايته: «عنرتك على ألا تعود إلى ذلك ثانية». فقلت سمعًا وطاعة. لكن ما إن تخطيت العتبة حتى قلت في سري. سأعود وأعود وأعود إلى ذلك. وبالفعل كتبت عدة قصائد من المستوى نفسه. مثل «انيتا» و«أفروديت»، واكتمل النصاب عندما نظمت «النزغة!.. أو ليلة من ليالي الشباب" ومعناها الخروج عن المألوف.

هل تصدقين أن هذه القصائد نشرت منذ نصف قرن؟ علما بأن بعضها لا ينشر حتى في أواخر القرن العشرين.

بعد كل هذه القصائد، حضرت نفسي للرحيل في أي لحظة. والملك لم يسألني على الإطلاق عن هذه القصائد، رغم أنني تخطيت كل البروتوكولات. وبكل براءة وطفولة، تقدمت بطلب ترخيص جريدة من وزارة الداخلية، دون استئذان الملك فيصل الأول متناسيا أنني أعمل في الديوان الملكي.

قرن تنظم وتنشر؟ تنشر أيام كانت العادات والتقاليد العشائرية سائدة.

يومها أثيرت الضجة حول قصيدة "جربيني" التي نشرت في جريدة "العراق" (١٩٢٧).

لم أكن آنذاك مغفلا، أو متناسيا مركزي في الديوان الملكي. بل كنت متأكدا مما ستجره علي تلك القصيدة من مصائب. لكن الذي شجعني على نشرها هو رئيس الديوان الملكي رستم حيدر. إذ حضر في أحد الأيام وسألني عن جديدي في النظم فقلت. لا شيء. فأجاب: «لا أعتقد ذلك». عندها، قلت له: رستم بك عندي جديد. لكني أتهيب مقامك. فكان رده: «لا مقامات في الشعر.. اقرأ». وقرأت له نحو خمسة أبيات من «جربيني" فأعجب برقتها وبلاغتها. ونشرت القصيدة، وفي ذهني أنها ستثير ضجة. حتى الجرائد، كان بعضها مؤيدا وبعضها الآخر معارضا.

ووصلت أصداء الحكاية إلى الديوان الملكي. ومثلت في حضرة الملك فيصل الأول وأنا متأكد مما يريده مني. قال: «مرحبا.. أنشرت قصيدة جديدة في الصحف؟». ولحسن الحظ أن «جربيني" نشرت باسم مستعار هو «ابن سهل" إذ كنت يومها أنشر تحت هذا الاسم واسم آخر هو «طرفة».

وكان جوابي على الملك التالي: سيدي. لو سألني إنسان آخر لقلت لا. فالقصيدة منشورة باسم مستعار. أما أنت، فلا أستطيع إلا أن أصدقك الحقيقة.

كانت القصيدة أمامه. نظر إليها ثم التفت إلي وقال: «إنها رائعة. لكن أتعلم لماذا ناديتك؟ أخي الملك علي اتصل بي هاتفيا وقال: أتعلم ماذا فعل (ابنك محمد اليوم؟) فكل ما أطلبه منك الآن، هو الذهاب إليه والاعتذار منه».

وفي المساء اتجهت نحو قصر الملك علي، فاستقبلني هو مع مفتي بغداد يوسف العبد. تصوري موقفي وقصيدة «جربيني" بين الملك علي المتدين ورجل الدين مفتي بغداد.

التفت إلي الملك علي وقال: «الحمد لله أننا رأيناك». وكان ردي أنني أقدر ظروفه لذا لا أحب إزعاجه. قال: «وما الذي أتى بك الآن؟».

قلت: جئت طالبًا الاعتذار منك رغم أنني بريء يا سيدي.. وكل ما كتبته لا يتعدى الكلام.. كلام شعراء، لا أكثر ولا أقل. وأنا ينطبق علي المثل الشائع: «عفة النفس وفسق الألسن». عندها قال لي: «الحقيقة أنني لست راضيا عنك. أنسيت أنك ابن الشيخ صاحب الجواهر؟ ابن المرجع الأعلى في الدين ينظم أمثال هذه القصائد؟». ودار حوار بيني وبينه قال في نهايته: «عذرتك على ألا تعود إلى ذلك ثانية». فقلت سمعًا وطاعة. لكن ما إن تخطيت العتبة حتى قلت في سري. سأعود وأعود وأعود إلى ذلك. وبالفعل كتبت عدة قصائد من المستوى نفسه. مثل «انيتا» و«أفروديت»، واكتمل النصاب عندما نظمت «النزغة!.. أو ليلة من ليالي الشباب" ومعناها الخروج عن المألوف.

هل تصدقين أن هذه القصائد نشرت منذ نصف قرن؟ علما بأن بعضها لا ينشر حتى في أواخر القرن العشرين.

بعد كل هذه القصائد، حضرت نفسي للرحيل في أي لحظة. والملك لم يسألني على الإطلاق عن هذه القصائد، رغم أنني تخطيت كل البروتوكولات. وبكل براءة وطفولة، تقدمت بطلب ترخيص جريدة من وزارة الداخلية، دون استئذان الملك فيصل الأول متناسيا أنني أعمل في الديوان الملكي.

إصدار صحيفة

بعد فترة، حضر وزير الداخلية إلى الديوان الملكي لمقابلة الملك. وما إن اقترب مني حتى قال لي: «كيف تطلب ترخيص جريدة وأنت ما زلت موظفا في الديوان الملكي؟ ألا تعرف أن امتياز صحيفة لا يعطى إلا لشخص مستقل ولا يعمل في أي دائرة رسمية؟» عندها قررت الاستقالة.

ودخلت على الملك أستأذنه بذلك. وقال لي بلهجة بدوية صرفة: «صديقك ما يقولك بهذا» أي أن صديقك الصدوق لا ينصحك بذلك. ثم تابع حديثة قائلا: «ابني محمد، أتترك الديوان إلى الصحافة؟ نوري السعيد نصحك بذلك؟». قلت: لا سيدي.

وكان الملك قد أدرك أن هذا الواقف أمامه، محمد مهدي الجواهري، لا يمكن بقاؤه في هذا المكان مع كل ما يملك من إمكانيات أدبية وشعرية. وعرف أن مستقبلي يجب أن يبنى خارج التشريفات.

ثم تابع الملك حواره معي فقال: «هناك أول بعثة عراقية سترسل قريبا إلى باريس. فلماذا لا تكون أنت في عدادها. ومعلوم لديك أن باريس هي عالم الأدب والفن. وأنت شاعر لك مستقبل. وستتقاضى راتبا أثناء سفرك في البعثة. كما أن راتبك هنا لن ينقطع وسيبقى للعائلة. اسمع نصيحتي. ولدى عودتك ستجد أن الصحافة ما زالت موجودة في انتظارك».

ومن باب الخجل قلت له أن يمهلني فترة للتفكير. لكن في اليوم الثاني قدمت استقالتي لرئيس الديوان الملكي صفوت باشا العوى. وبقيت استقالتي معلقة مدة طويلة قبل أن تقبل.

اليوم، عرفت فداحة غلطتي. أنا شاعر «جربيني" و«النزغة" و«أفروديت» أرفض الذهاب إلى باريس رغم أن مكاني الطبيعي كان يجب أن يكون هناك. وحتى الآن، أحسد كل من يتكلم الفرنسية، هذه اللغة الناعمة الغنية في عالم الأدب والشعر، وعندي هوس فيها. وقد قرأت كتبًا فرنسية كثيرة، ولكن للأسف لا أستطيع التحدث بها.

خلاصة الموضوع، أنه بعد الاستقالة حصلت على ترخيص الجريدة وكان اسمها «الفرات" في نفس الأسبوع الذي ولد فيه ابني البكر فرات. وتاريخ أول عدد كان الثامن من مايو (أيار) ١٩٣٠.

صحيح أن فترة صدورها لم تطل أكثر من شهر. لكنها كانت تعتبر وثائق تاريخية. إذ كان يكتب فيها جعفر باشا العسكري أحد رؤساء الوزارة السابقين في العراق ردا على مزاحم الباججي. والأخير أيضا رئيس وزراء سابق، وهو حي حتى الآن ويعيش في سويسرا.

أما عدم استمرار «الفرات" فكان لأسباب يطول شرحها. وباختصار: فمع صدور الجريدة كانت المرة الأولى التي يتولى فيها رئاسة الوزارة نوري السعيد. وبالطبع كان لكل زعيم أشخاص يؤيدونه من طليعة الشباب المثقف. مثلا ياسين الهاشمي كان له جماعة من التقدميين يحتضنهم. وكذلك نوري السعيد. وقد نظمت له قصيدة تحت اسم «لتكن حازمة.. إنها وزارة المفاوضات" ولم يكن القصد منها مدح نوري السعيد، إنما حثه على العمل من أجل وطننا العراق.

وكان نوري السعيد مقربًا من الملك فيصل كثيرا. وما إن صدرت جريدتي حتى تبناها. لكن الجمهور اعتبرها جريدة الملك لكوني كنت في الديوان الملكي وباعتبار أن نوري السعيد يعد الرجل الأول بالنسبة إلى الملك فيصل الأول. ولعله كان كاتم أسرار الملك.

جريدة «الأفندي»

أثناء تلك الفترة، كانت هناك جريدة «الأفندي» ممسوخة، هزلية ووظيفتها شتم الناس بطريقة مبتذلة وغير لائقة. فاعتبرت جريدتي حجر عثرة في طريقها. وللأمانة والتاريخ أقول إن أصحابها كانوا من بقايا عصابة ساطع الحصري في ذلك الوقت. وكانت كلما صدرت «الأفندي» وجدت فيها بعض الانتقادات الموجهة ضدي وموقعة باسم «حيزبوز" إلى أن طفح الكيل ولم أعد أحتمل، فكتبت مقالا ضد ساطع الحصري وعصابته لم أترك فيه سترا مغطى، فسبب كارثة رهيبة. وحتى الآن أعتبر المقال أحد أخطائي الرهيبة، إذ كان باستطاعتي يومها جعل نوري السعيد يمنع صدور «الأفندي» لكني فضلت الإجابة عبر «الفرات».

وقامت الدنيا ولم تقعد، واستغلت المقالة ضدي. وبدل أن أصطاد تلك العصابة اصطادتني، إذ بدأت الجرائد الموجودة تكيل إلي التهم يوميا.

وفي اليوم الثاني لنشري المقال، صدر قرار من مجمع الوزراء بإقفال جريدتي لأجل غير مسمى. إنه أحد أخطائي. يومها كتبت بلا حساب مقالا بعنوان «يا وزارة المعارف.. يا وزارة الحبابزة والقزامزة». وصحوت بعدما انقلبت الدنيا كلها ضدي.

بعد هذه الضجة التي أثارتها مقالتي، ذهبت إلى الملك فيصل الأول لأشكو له هذه الحملات التي تدار ضدي، وما إن رآني حتى استقبلني قائلا: «ابني محمد!.. ماذا تريد؟" أجبته: لا شيء سوى حكمك العادل. عندها التفت إلي، فأحسست الشماتة في عينيه.

ورغم كل محاسن الملك، كان يحقد كالبعير. قال: «أتتذكر الماضي، وماذا قلت لك؟ اليوم، المحكمة هي الفصل في قضيتك».

أما نوري السعيد، فقد كانت تركيبته من نوع آخر. إذ حاول أن يفعل شيئا من أجلي لكنه لم يستطع. وحاولت أن أجرب حظي مع رستم حيدر رئيس الديوان الملكي. وقد كان يصدقني القول ومعجبا بي كشاعر. فاستقبلني بالترحاب ثم بادرني قائلا: «أنت تعرف هؤلاء الأشخاص (يقصد الملك) وكيف يتعاملون. وأن لديهم قوائم سوداء. فإذا استطعت الخلاص من هذه الورطة خلال ثلاث سنوات، فأنت الرابح».وهكذا كان، بقيت ثلاث سنوات لا أستطيع حتى التنفس، بعدها عينت في نفس وظيفتي الأولى، أي عدت إلى التدريس في المدارس الابتدائية.

هكذا نفذ في حكم الانتقام. فقد قال الملك فيصل الأول: «ليعد إلى وظيفته الأساسية" أي مدرس ابتدائي. وكنت مجبرا على العودة، بعد تعطيل ثلاث سنوات، من أجل لقمة الأولاد.

من مذكرات الاستاذ الجواهري التي نشرتها الصحفية هدى المر في مجلة اللجنة اللندنية سنة ١٩٨٢

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم
أعد الملحق الخاص بالجواهري
علي حسين
علاء المفرجي
رفعت عبد الرزاق
الاخراج الفني: خالد خضير
طبعت بمطابع مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون
WWW. almadasupplements.com

في ذكرى رحيل الجواهري

علي حسين

تمر اليوم ذكرى
٢٠ عاما على رحيل
شاعر العراق الأكبر محمد
مهدي الجواهري، الرمز الوطني الذي أرخ للبلاد و أحداثها فكان هو العراق لساناً ودماً وكياناً.. صاحب يوم الشهيد و آمنت بالحسين وقلبي لكردستان.. مرت ذكرى رحيله بصمت مثلما مرت ايضا وقبل ايام ذكرى المفكر الكبير علي الوردي، مرت ذكراهما وسط صمت حكومي بامتياز. فكان التجاهل، ونكران الجميل والنسيان لاثنين من بناة النهضة العراقية الحديثة، اللذين اتمنى عليهما ان لا يغضبا او يحزنا لأننا اليوم نعيش عصر أمراء الطوائف والمحاصصة البغيضة والبحث عن الغنائم، عصر المحسوبية والانتهازية، والنواب الذين يتهالكون على الامتيازات اكثر من تهالكهم على حضور جلسات البرلمان، عصر وزعت فيه رواتب تقاعدية لسياسيين امضوا تسعة اشهر في الخدمة قضوها بين مصايف لبنان وابراج دبي!
ايها الشاعر المكافح في سبيل عراق حر وديمقراطي، وايها المفكر الذي حذرتنا دوما من زمن السلاطين وطالبتنا بان نعيش زماننا ونخرج من كهف القرون الوسطى، انتما لا تنتميان الى حزب من احزاب هذا الزمان، يجبر مؤسسات الدولة على اقامة الاحتفالات والموائد.. ولستما من دعاة القبلية حتى تطالبا بـ"ضرورة تشريع قانون المجلس الوطني للعشائر لتهذيب الأعراف الطارئة على المجتمع العراقي، كما ان ذكرى رحيلكما تزامنت ونواب مجلسنا الموقر يخوضون حرب اجهاض الحريات واشاعة دولة الفساد والاستبداد. وإذا كانت بعض شعوب العالم تحتفل بمفكريها وأدبائها الكبار، فهذا لأنهم شعوب عاطفية اكثر من اللازم، ويملكون وقتاً فارغاً لا يعرفون ماذا يفعلون به، فلا تصدق ايها الشاعر الذي مات منفياً من اجل وطنه، ان هناك من يهتم بذكرى رحيلك، فالوطن اليوم مشغول بما هو اهم، فأنت لا تنتمي لشلة حزل حكومي ولا ترتبط بصلة قرابة مع احد رؤساء الكتل السياسية وانت لم تكتب قصيدة مديح في الانجازات العملاقة التي حققها النظام السياسي الجديد.. وخطيئتك الكبرى انك لم تؤجل موتك لتلتحق بركب "سياسيي الصدفة"، فتصبح عضوا في مجلس النواب. اما انت يا صاحب مهزلة العقل البشري، ايها المنسي، فإن مدينتك الحبيبة "بغداد" يريد لها البعض ان تعيش زمن القرون الوسطى.. وان تغرق في بحور من التخلف والقمامة والنسيان وسط ضجيج سياسيين أدخلوا كل غرباء الارض الى مخدعها..
عفواً ايها الراحلان هذا ليس زمانكما، و بالتالي لا تحزنا منا على هذا التجاهل، فنحن نعيش عصر النائب "الرشّاش" محمود الحسن، الذي دخل مجلس النواب بستة اصوات فقط لاغير.
نم قرير العين ابا فرات، فان نسيانك، انت، من حكام اكل السحت ، أمراء الطوائف، شرف لك، ما دمت، وكل عظماء شعبنا، تحتل مكاناً اثيراً في قلب كل عراقي وطني شريف، وفي ضمائرنا. وهل يمكن ان تغيب عن المشهد، وها انت تصف ما نحن فيه من هوان في رائعتك.. يا طرطرا:

أي طرطرا، تطرطري.. تقدمي، تأخري
تشيّعي، تسنّني.. تهوّدي، تنصّري
تعممي، تبرنطي.. تعقلي، تسدري
في زمن الذرّ إلى بداوة تقهقري
وألبسي الغبيَّ والاحمق، ثوب عبقر
وافرغي على المخانيث دروع عنتر

أكاد أسمع صوت الجواهري في ذكرى رحيله يسخر من الذين يعتقدون ان الحكومة بوضعها الحالي مشغولة أصلا بالإبداع والثقافة ويقول: إن خطوات أقطعها فى اعتصام البصرة، أو مساهمة فى تظاهرات الانبار بألف مهرجان مما تعدّون..